

من كتابه (تاريخ الادب الايطالي) ص 112 - يجتث كل طموح لهم نحو الرخاء ونحو الطمانينة ، ويعاقب بقسوة ظالمة كل ارادة لهم للخروج من قسرتهم ، والارتقاء فوق ظروفهم الاجتماعية .

ومع ذلك فان هناك، الى جانب الاقدار والكابوس الصارم ، شيئاً آخر هو « البطونية » ، هو الصمود حتى النهاية في النضال الذي يرافق سائر احداث اسرة ملافوليا والمعلم جيزوالدو . ان البطولين التاعسين لا يرضخان للمصائب، ولا يتحنين امام المصائب والعواقب الرهيبة التي يضعها القدر في طريقهما ، بل يسيران رافعي الرأس دون ان يعرفا اليأس والهزيمة .

ان الحتمية القدرية ليست حقيقة مطلقة في الحياة ، بمعنى ان الانسان يجب ان يحني رأسه مستلماً لها دون نضال . وكذلك هي في روايتي فيرغا : في حياة اشخاصه وتصرفاتهم ومعتقداتهم . انها ليست حقيقة مطلقة لا يمكن التغلب عليها بقوة الارادة ورجولة النضال ، بمقدار ما هي عقيدة ميطرة على تفكير المؤلف نفسه . ان فيرغا يلج كل اللاحق في ابرازها في رواياته . وعلى الرغم من انها ليست حقيقة لا علاج لها ، الا ان المؤلف يبحث عنها عامداً ، ويريدها دون علاج لابطاله الذين يدعوهم (المفلوبين) لكي يحدد لهم قسمتهم تحديداً قسرياً منذ الازل : اي ان « يعملوا ويتألموا » - كما يقول الناقد الايطالي ساينيو (Sapegno)

ان اشخاص فيرغا ليسوا من اختراع خياله . هذا صحيح ، ولكنهم مخلوقات آدمية ينتقيها هو من الواقع البائس انتقاء بلحمها ودمها ، ويعرضها على المسرح لكي تمثل ادوارها الحقيقية التي يلازمها اليأس والتحس . غير أننا في هذا الواقع الذي يعرضه لنا المؤلف نلمس لدى فيرغا ميلاً طبيعياً - أو هل نقول « حتمياً » ، حسب اعتقاده بالحتمية ؟ - الى المأساة اكثر منه الى الملهة، او الى بساطة الحياة وعاديتها . وقد يكون ذلك لان حياة جزيرة صقلية كانت حينئذ - كما صورها فيرغا ، وكما صورها من بعده جوزيبي تومازي دي لامبيدوزا في روايته (الفهد) او (Il Gattopardo) كما هو عنوانها بالايطالية ، بكثير من الاغراق في التشاؤم - منفسى مليئاً بالتعاسة والجهل والفقر والظلم .

يقول ماتزوني (Mazzoni) : « ان المؤلف يعطينا اشخاصه كما يريد هم هو ، ويجعلهم يتصرفون

كما نحب نحن ، حتى في اكثر حركات حياتهم سرية . انه يسمع اشد اصواتهم خفاء ، ويتجسس حتى على تنهداتهم في ليالي الارق . . . وأنا احب ان اضيف هاهنا ان فيرغا يستحضر اشخاصه ومعهم بيئاتهم الحقيقية . وعلى الرغم من انه كان يصير دائماً على ان فنه لا صلة له بشخصه ، وينفي الذاتية عنه ، فان ما يضعه من كلام على افواه اشخاصه ينسجم كل الانسجام مع البيئة النفسية والروحية التي يحسها هو نفسه ويريد ابرازها ، اي مع عالمه الخاص . وطبيعي انه يقدم لنا الحقائق في لمسات من يدفنان بارع ، لا وقائع تاريخية مجردة من حياة الجزيرة فحسب . والمساكين الذين يناضلون لاجل الرغيف ولاجل السلام في جزيرتهم هم وحدهم الاشخاص الذين يعتمد فيرغا اختيارهم ليفصل على قياسهم فكرته الخاصة في القدرية وفي المصير المحتوم وجبروته . غير أننا نراهم ، رغم الهزائم المريرة ، على استعداد دائم لمتابعة النضال بكل جدارة ، ومن غير هدنة . صحيح انهم قد ينتهون الى الخيبة والقنوط ، ولكنهم يسقطون سقوط الابطال ، لا سقوط الضعفاء والجبناء ، وفي بعض الاحيان قد يبلغ نضالهم - ولو متأخراً جداً - الى النصر ، والى استرداد المتاع الذي فقدوه ، كما رأينا في (اسرة ملافوليا) وفي بعض جوانب في (المعلم السيد جيزوالدو) ايضاً ، كما سأشرح ذلك في ما يلي :

في (اسرة ملافوليا) يناضل الشيخ نتوني طويلاً ، وتناضل معه أسرته كلها كذلك ، لكي يتوصلوا الى استرداد (دار الزعرورة) . غير ان السيد نتوني نفسه لا ينتصر ، لسوء حظه ، الا بعد موته : ففي اللحظة الاخيرة يبشره حفيده اليسي بانه استطاع ان يسترد الدار . كان السيد نتوني حينئذ على عتبة العالم الآخر الذي لا عودة منه ، غير انه احس بأن الحياة لم تخدعه خداعاً تاماً ، وبأن العدالة ما تزال توجد على الارض .

واليكم ما تقوله الرواية :

« حين اخبروه بعد ذلك انهم استعادوا دار الزعرورة ، وارادوا ان يعيدوه معهم الى (تريسا - Trezza) من جديد - كان حينئذ في المستشفى طبعاً - اجاب بنعم ، ثم نعم ، بعينيه اللتين عادتوا الى الاشراق ، وكاد فمه ينفرج عن ضحكة عريضة : ضحكة اولئك الذين ما عادوا يعرفون الضحك ، او الذين يضحكون للمرة الاخيرة . ولكن الضحكة ظلت

ساعة واحدة مثل تلك الساعات التي كان يستمتع بها اخوه (سانتو) على حبايه في الحانة « (ص 78) .

وعلى الرغم من كل هذا اليأس والعناء فان دون جيزوالدو لم يكن قط رجلا متخاذلا : لم يستسلم الي مشيئة القدر ، بل كان يريد ، بأي ثمن ، ان « يخرج من قشرته ويرتقي فوق ظروفه الاجتماعية الاصلية » . وقد رأينا في ما تقدم كيف استطاع بفضل عمله الدائب وتصميمه الحازم ان يصل الي مكانة اجتماعية مرموقة يحترمها الآخرون ، وان يصبح مرهوبا حتى لدى الشخصيات البارزة الضخمة في بلده ، وان يقترب بفتاة من أسرة ارسقراطية . حتى ابنته الوحيدة اقترنت بأحد دوقات باليرمو .

صحيح انه في النهاية كان لابد ان يقضي بالسرطان ، الا انه مات بطلا لا خاملا وضيعا . وعدا ذلك - وهذا مهم جدا - مات جيزوالدو واثقا من ان ابنته - ثمره زواجه الوحيدة - لن تعرف اليأس والحرمان ، بل ستتمتع بثمره تضحيتها وكفاحه .

ومن هم الذين كافحهم المعلم جيزوالدو ؟

لقد كافح الجميع ، وكافح كل شيء : كافح اليأس ، وضعة الاصل ، وقسوة الحياة ، وكبار الشخصيات في البلد ، وتحكم والده المتعنت ، وحسد اخيه وجشعه ، وكافح كذلك حسد شقيقته وزوجها ، بل لقد كافح حتى (تاني - Tanni) الانتهازي ، وهو ليس سوى زوج لخادمته (ديوداتا - Diodata) . . . وكذلك كافح حقد الاخوين (تراو) شقيقي زوجته ، كما كافح غرور صهره التدوق ، ومساوي الكاهن (دون لوبي) وخيشه . وكافح الملاريا ، وقوى الطبيعة التي تماكسه في صف خصومه الناقمين الحاسدين . وفي كل مرة كان جيزوالدو يخرج من هذا الكفاح منتصرا ، حتى اللحظة الاخيرة التي ادار فيها وجهه نحو الحائط - كما فعل والده من قبله - « وبردت اطرافه فجأة ، ثم سكتت حركته نهائيا » - كما يقول المؤلف (ص 367)

لقد مات السيد جيزوالدو والسيد نتوني مالا فوليا قانطين ، هذا صحيح ، ولكنهما ماتا بكرامة وانفة . كانا من الابطال الحقيقيين الذين يظلون متكبيين سلاحهم حتى النفس الاخير في كفاحهم ضد حتمية الاقدار . وهذه البطولة في الصراع

مفروسة في قلبه كالنصل . ذلك ما جرى لاسرة مالا فوليا حينما عادوا يوم الاثنين في عربة (العم الفيو) ليعيدوا جدهم معهم الي المنزل فلم يجدوه « (ص 245)

اذن فقد انتصر السيد نتوني على حياة الفقراء المريرة بنضاله الذي لم يكن لنفسه فحسب ، ولا اينال النصر وحده : بل لتظل ثمره لاحفاده من بعده . ان النصر يظل دائما نصرا ، ولا يقلل من أهميته موت المحاربين الشجعان : فالنصر الحقيقي لا يجيء من دون تضحية . في جميع الحروب هناك من يحارب ويسقط لاجل الآخرين ، وآخرون يفوزون بمكاسب تلك التضحية . فالحارب انما يحارب لكي ينتصر وهو يعلم حق العلم بان الموت ينتظره في الحرب ، غير ان تضحيته لا تذهب عبثا الا اذا لم يستفد احد منها من بعده . والتضحية هنا ، ونضال السيد نتوني الطويل الشاق ، استفاد منهما آخر احفاده (اليسى) .

حتى المركب (العناية) انتصر على هياج الامواج والعواصف : كان حينما يمتليء بالمساء حتى ليخشى عليه من الفرق ، وحينما يخرج من مصارعة العواصف محطما . غير انه في كل مرة كان يعاد اصلاحه ، فيعود سليما ومستعدا لصراع جديد مع عاصفة اخرى ، واخيرا تخلى عنه اصحابه الي المرابي كروتشيفيسو تسديدا للدين وهو في حالة جيدة ، وظل يعمل حتى وفاة صاحبه الاول .

اما في رواية المعلم جيزوالدو فان جيزوالدو نفسه هو الذي انتصر . لقد رأينا انه كان قد ولد في اسرة بائسة . واليك ما تقوله الرواية في حياته النضالية :

« كان في حركة دائبة : يعمل دائما ولا تستريح قدماه ابدا ، من هنا الي هناك ، في البرد والحر والمطر ، وراسه مثقل بالافكار ، وقلبه متضخم بعدم الاستقرار ، وعظامه محطمة من التعب ، لا ينام اكثر من ساعتين اذا تيسر ذلك وكيفما تيسر : في قرنة اسطبل ، او خلف سياج ، في العراء او على الحجارة ، ياكل قطعة خبز اسود حيثما كان : على ظهر البغل ، او في ظل زيتونة ، او على طرف حفرة ، في الملاريا او في دوامة من البرغش لم يعرف الاعياد ولا عطلة الاحد ولا عسرف قط كيف يضحك ضحكة مفتبطة ... ولا وجد لديه

وسأضفي الآن في استعراض هذه الفئات واحدة
واحدة :

1 - المفردات والجمل :

في روايتي فيرغا الكبريين مفردات لا شك في
انها عربية الاصل لفظا ومعنى . ومنها الالفاظ
التالية (وهي كلها من رواية « ما لافوليا » ما عدا
الاخيرة منها فهي من « المعلم جيزوالدو ») :

- | | |
|-----------------|--|
| 1) CATRAME | قطران |
| 2) CARRUBBO | خروب |
| 3) BABAU | بمبع |
| 4) SOMMACCHI | سماق |
| 5) ZAFFERANO | زعفران |
| 6) SATANASSO | شيطان |
| 7) SALAMALECCHI | سلامات ، او مجاملات
(من «السلام عليكم») |

والى جانب هذه المفردات استعمل فيرغا جملا
مركبة ليست ذات لفظ عربي او طبيعة عربية في
كتابتها ، الا ان لها مثيلات في التعبير العربي ،
مما يبدو معه الامر غريبا اذا لم تكن هذ التعابير
تحمل آثار الطابع العربي . واليكم بعض هذه
العبارات ، مع ما يقابلها بالعربية ، واغلبها عامي ،
ولكنني مضطر الى تحويله الى تعبير فصيح ، مع
تقتي التامة من ان في البلدان العربية الاخرى ما
يقابله :

1 - يضع حجرا على الماضي
(جيزوالدو 238)

1) Mettere pietra 'sul passato

2 - من اخذ مالك خذ روحه
(جيزوالدو 321)

2) A chi ti vuol pigliar la roba levagli la vita

3 - يعيء هواء للصيف
(جيزوالدو 271)

3) Prendere il fresco per l'estate

4 - الفسيل القدر لا ينشر على السطوح
(جيزوالدو 275)

4) I panni sporchi si lavano in casa

5 - الامثال لم تكذب قط
(مالا فوليا 14)

5) Il motto degli antichi mai menti'

الانساني لا يجوز ، في اعتقادي ، ان نخضعها لفكرة
انحتمية وتحكم الاقدار ، كما يشاء النقاد الإيطاليون
ان يعتبروها في روايات فيرغا . انها بطولة ، وليست
خضوعا واستسلاما للاقدار .

ونجىء الآن الى النقطة الثانية في روايتي فيرغا
الكبريين ، وهي (السمات والمشابه العربية) التي
جملناها عنوانا لهذه المحاضرة برمتها .

اننا هاهنا نصل الى نقطة فيها شيء من الحرج
ومن اثاره الفضول معا . وما اظن احدا قد اثارها من
قبل ، او اهتدى اليها .

في روايتي فيرغا الكبريين وجدتني ازاء بعض
العناصر التي يبدو انها متأثرة بالطابع العربي ،
مباشرة او غير مباشرة ، لان البيئات العربية
واللغة العربية ما يزال فيها الى اليوم ما يشبهها .

ومن المؤكد ان فيرغا لم يكن يعرف ان في
اعماله الادبية مثل هذه العناصر الاجنبية الواضحة .
ولعله لم يخطر بباله قط ان كاتبها عربيا سيجيء يوما
من بلد بعيد في الشرق ليكشف عن سمات عربية
في ادبه .

ولكن التأثير العربي في صقلية امر غير منكور ،
على كل حال ، ولا هو بالشيء الذي يمكن كتمانها ،
فلقد حكم العرب الجزيرة قرنين من الزمن ، وكان
طبيعيًا لذلك ان يتركوا آثارا ملموسة في اهلها ،
ولاسيما اذا عرفنا ان تأثيرهم الاجتماعي والثقافي قد
استمر اكثر من قرنين بعد خروجهم من الجزيرة .

لقد خطر لي في البداية ان اجعل عنوان هذه
المحاضرة ، وبشكل خاص هذا القسم منها : (اثر
العرب في ادب فيرغا) ، غير ان عدم يقيني التام
من هذا التأثير مباشرة جعلني اکتفي بعبارة (سمات
ومشابه عربية) ، وهي اقرب الى المنطق ، وربما
كانت اقرب الى الصحة . وسأحاول في ما يلي ان
ابين المشابه اللغوية والروحية والواقعية بين البيئة
الفيروغوية والبيئات العربية .

ان السمات التي اعنيها يمكن تصنيفها في ثلاث
فئات :

1 - المفردات والجمل

2 - العادات والبيئات الشعبية

3 - الامثال والحكم

المصاب . وهم يحملون الارز ، والشاي ، والخراف ، والدجاج ، والطحين . والقهوة ، وحتى الحطب لطهو الطعام والخبز وما الى ذلك من الحاجات البيئية . والقرويون يؤدون هذه المشاركة اللطيفة لمساعدة أسرة الميت وتعزيتها ، من جهة ، ثم لانه لا يجوز ان تتحمل أسرة الميت وحدها كل النفقات - وهي غير قليلة -

2 - (مالا فوليا - 80) في ما يتعلق ببواعث الشؤم تقول الكنة سانتوتسا : « ان تقود العم كروتشيفيسو تحمل معها الدواهي ! ففي هذه الثيلة ايضا سمعت الدجاجة السوداء تصيح » .

وعندنا ايضا اذا صاحت دجاجة مثل صياح الديك - وليس من الضروري ان تكون سوداء فقط - اعتبر ذلك نذير شؤم ، ولا بد عندئذ من ذبحها فدى عن البيت الذي تصيح فيه .

3 - (مالا فوليا - 93) - كان الحفيد نتوني يريد الاقتران ببيربارة رغم ارادة جده وأمه ، وكان الجد يؤنبه قائلا : « هل ستتزوجها ؟ وأنا من اكون ؟ وأمك ، اليس لها عندك شأن ؟ حين اراد ابوك ان يتخذ له زوجة استشارني في ذلك اولا » .

وفي رواية (المعلم جيزوالدو) كذلك حكاية مشابهة لهذه ، في الصفحة 105 ، حين يسأل خادم الكنيسة السيدة بيانكا تراو اذا كانت ستتزوج السيد جيزوالدو ، فتجيبه بقولها : « اذا كان أخواي قد رفضا ذلك فأني رأي لي ؟ » ثم اضافت : « ان أخواي هما صاحبا الامر ... وهما وحدهما اللذان يقرران » .

وعندنا ، في اكثر البلدان العربية ، ان لم يكن فيها جميعا - وعلى الاخص في القرى والبيئات البدوية ، يتم الزواج بمثل هذه الطريقة : ليس عن رغبة أو حب متبادل ، بل باختيار الوالدين ، أو الاخ الأكبر الذي تقضي التقاليد بان يقوم مقام الوالد في حالة وفاة الوالد .

4 - (مالا فوليا 111) - ونأتي الآن الى حادثة تبشر بفأل حسن ، وذلك عندما « تتظاهر ابنة العم حنة بسقوط قارورة الخمر من يدها ، وفيها نحو ربعها من النبيذ ، فتأخذ عندئذ في الهتاف : افرحوا ! افرحوا ! .. ان اندلاق الخمر فال حسن ! »

عندنا يقال مثل هذا عن القهوة ، لا عن الخمر ، والاختلاف هنا بحكم البيئة والتقاليد فقط ، وذلك لان القهوة هي دليل الضيافة الحميمية الاعم استعمالا

6 - رآه بعينيه اللتين سيأكلهما الدود
(مالا فوليا 16)

6) Li avevi visti con quegli occhi che dovevano mangiarseli i vermi

7 - فلان مثل الحيط المنخفض
(مالا فوليا 73)

7) lo sono come il muro basso

8 - واقع بين المطرقة والسندان
(مالا فوليا 85)

8) Stava fra l'incudine e il martello

9 - لا يسمح بان تقف الذبابة على انفه
(مالا فوليا 97)

9) Non si lasciava posare le mosche al naso

10 - المصائب تعلم الحكمة
(مالا فوليا 119)

10) Il giudizio viene colle disgrazie

— * —

وهناك كثير من مثل هذه العبارات الإيطالية التي تقابل عبارات عربية مثلها وتطابقها كل المطابقة . وليس قصدي استعراضها جميعا بل تقديم بعض النماذج فحسب لكي أنطلق بعد ذلك الى الفئة الثانية ، وهي :

2 - المشابه في العادات والبيئات الشعبية :

وهذه نقطة أخرى جديرة بالابراز والدرس ، وهي تتعلق بالعادات الشعبية التي رسمها فيرغا في روايته . ومن السهل ان نجد ما يماثلها تماما في الحياة الشعبية العربية . وأنا اكرر أنسي أورد ما أعرفه في بلدي ، يقينا مني بأن في البلدان العربية الأخرى ما يماثله . وهاكم بعض تلك العادات :

1 - (مالا فوليا - ص 44) - يدور الحديث على موت الابن باستياناتسو - وعند ذكر العادات الشعبية يعرفنا المؤلف كيف ان الاصدقاء يحملون الى بيت الفقيد هدايا من العجائن والبيض ، ومن خيرات الله .

ان مثل هذه العادة ما يزال متبعا الى اليوم في القرى الأردنية ، مثلا - وليس من شك في ان هناك مثله في اقطار عربية أخرى - ففي القرى عندنا ليس الاصدقاء وحدهم هم الذين يحملون الى بيت الفقيد مختلف الهدايا ، بل تشترك القرية كلها في ذلك كعنى من معاني المؤاساة والمشاركة القلبية في

والواقع ان فيرغا قد استطاع ان يعطينا كل ذلك
ببراعة الفنان الاصيل .

وهنا أيضا نجد المجال واسعا للتبصر
والملاحظة . ومن بين الامثال الصقلية التي أوردها
فيرغا في روايته (أسرة ملافوليا) اختار المجموعة
التالية ، مع ما يقابلها من الامثال العربية العامية
بشكل خاص ، (ولكنني مضطر الى ايراد هذه الامثال
بغير أصلها العامي) :

- 1 - ما كان اوله شرطا فأخره سلامة -
1) Quel che e' di patto non inganna
- 2 - عمر الشقي طويل -
2) Uomo povero ha i giorni lunghi
- 3 - نم بخير يا جاري لكي أنام معك -
3) Augura bene al tuo vicino che qualcosa
te ne viene
- 4 - بعيد عن العين بعيد عن الخاطر -
4) Lontano dagli occhi lontano dal cuore
- 5 - الصديق عند الضيق -
أو :
- عند الشدائد يعرف الاخوان
5) Carcere, malattie e necessita', si conosce
l'amista'
- 6 - كل واحد يهيل النار على قرصه -
6) Ognuno tira l'acqua al suo mulino
- 7 - البيت الذي ليس له كبير ليس له مشير -
7) Ascolta i vecchi e non ti sbagli
- 8 - الرجل يمسك من لسانه -
8) L'uomo per la parola e il buo per le corna
- 9 - الدم لا يصير سما -
أو :
- الدم لا يصير ماء -
9) Il sangue non e' acqua
- 10 - من يلعب بالماء تبطل ثيابه -
10) Chi cade nell'acqua e' forza che si bagni
- 11 - الحب والبغض ليسا باليد -
11) Amare e disamare non sta a chi le vuol
fare
- 12 - من كان لا خير فيه لقدومه لا خير فيه لجديده
12) Chi cambia la vecchia per la nuova peggio
trova

لدى العرب ، وهي في ذلك كالخمر عند الايطاليين
والفريسيين عامة .

5 - (جيزوالدو 273) غضب جيزوالدو
غضبا شديدا حين بلغه ان ابنته ايزابيلا قد هربت من
المدرسة الداخلية، واصابه ما يشبه الصدمة المفاجئة،
فاضطروا الى استدعاء الحلاق ليسحب منه دما .

كملاج بدائي في بعض حالات المرض يلجأ
الكثيرون في بعض البلاد العربية - ان لم يكن فسي
جميعها - الى من يسحب منهم دما - وفي هذا نجد
من يستخدم العلق لمص الدم - وهناك حلاتون -
رايت بعضهم بنفسي في القدس قبل عدة اعوام -
يعنون بتربية العلق في قوارير زجاجية كبيرة لهذا
الغرض ، وهم يستخدمونه بالصاقه على ظهر المريض
او عنقه لامتصاص شيء من دمه . وهناك من
يستخدمون الشفرة او موسى الحلاقة ، يشطبون
بهما ظهر المريض او اذنيه . كما ان العادة الاكثر
شيوعا هي استعمال كاسات الدم لراحة المريض ،
ولاسيما اذا كان يشكو من ضيق الصدر او النزلة
الصدرية ، او ما الى ذلك .

من هذه النماذج نرى اننا ازاء عادات متشابهة
كل التشابه في البيئة الصقلية الفيرغوية وفي البلدان
العربية . ولا يبدو لي شيء من الغرابة في ان تكون
هناك سمات عربية في هذه العادات الصقلية ما دامت
هي نفسها شائعة في الافطار العربية حتى اليوم .

— * —

3 - الامثال والحكم :

في الامثال والحكم نجد دائما خلاصة حميمة
لتجارب الشعوب عبر الاجيال ، كما نجد الصورة
الاصلية للعقلية والروح والاخلاق التي اكتسبها شعب
ما نتيجة تجارب وصلات طويلة مع الشعوب الاخرى،
سواء اكانت هذه الشعوب صديقة ام عدوة ، قريبة
ام بعيدة .

وفي (أسرة ملافوليا) بنوع خاص اهتم
فيرغا كثيرا ، وعامدا ، بالامثال الصقلية ، وراح
يردها بكثرة في كل فصل من فصول الرواية
بمقدرته الفنية الفائقة التي نعرفها . ومن المؤكد اننا
نستطيع ان نستخلص منها صورة المجتمع بكثير من
الدقة ، سواء من الوجهة الخلقية ام الاجتماعية .

من البيئات الشعبية الصقلية المناضلة لاجل العيش ،
والمكافحة ببطولة جسارة في سبيل التغلب على حتمية
الاقدار القاسية .

وقبل ان اختم هذه الدراسة العاجلة اود ان
اذكر ما قاله لويجي كابوانا ، رفيق فيرغا ومواطنه
وزميل مدرسته الادبية ، في هذه الواقعية
الفيروغوية الصميمة ، وهو : « ان فيرغا حينما تخطر
على باله وضع فكرة قروية في صورة فنية ، لا
يقتصر على جمع بعض المعلومات ، بل ينقل صورة
أرضهم . ليس كافيا لديه ان يكون اولئك الاشخاص
ايطاليين - الفلاح ايطالي كلمة تجريدية - انه
يذهب ابعد من ذلك كثيرا : يريد ان يكونوا صقليين
.. يريدهم ان يكونوا من مقاطعة محددة ، بل من
مدينة محددة ، بل من قطعة صغيرة من الارض
بحجم الكف ... عند ذاك فقط يقف » .

ان هذا التحديد ينطبق كل الانطباق على روايتي
فيرغا اللتين استعرضناهما في هذه العجالة : فلقد
كان ادب فيرغا منتزعا من صميم الارض البائسة
التي راي فيها المؤلف النور - وان لم يعش فيها
كثيرا ، بل قضى الشطر الاكبر والاھم من عمره
في الشمال ايطالي الذي ينعم بالشراء والرخاء
والحيوية العاملة في النهار والليل .

لقد كان فيرغا بحق ابن بيئته ، وكذلك كان
ادبه الخالد ، التابع من نفس تشعر ببؤس الآخرين ،
وينضالهم القاسي في سبيل العيش .

وطبيعي انه ، وهذا ادبه ، لا بد من ان يعكس
فيه الروح الصقلية العامة ، بكل ما فيها من رواسب
وتأثيرات انطبعت في حياتها على مدى الاجيال .
ومن هذه التأثيرات ما لمسناه الآن من المشابهة
والسمات العربية في البيئات التي وصفها فيرغا في
روايتيه الكبيرين : (اسرة مالا فوليا) و (المعلم
السيد جيزوالدو) .

13 - من اكل على ضرسه نفع نفسه -

13) Chi ha bocca mangia, e chi non mangia muore

14 - شيء خير من لا شيء -

او بالعامية : (ريجة الجوز ولا عدمه) -
14) Meglio poco che nulla

15 - كل طير يحن الى عشه -

15) Ad ogni uccello il suo nido e' bello

16 - القناعة غنى -

16) Piu' ricco e' in terra chi meno desidera

17 - من عاشر القوم اربعين يوما صار منهم -

او : من يدخل بلد العور يقلع عينه -
17) Chi va con zoppi all' anno zoppica

18 - مال الحرام لا يدوم -

18) Roba rubata non dura

19 - ليس للجائع آذان -

وبالعامية : (الجوعان مالوش آذان)
19) Ventre affamato non ragiona

20 - الملدوغ يخاف من جرة الحبل -

20) Le cose lunghe diventano serpi

— * —

والآن بعد ان فرغت من استعراض هذه الامثلة
والنماذج العديدة ، والمشابه بين عادات وامثال
وتعابير متعددة من بيئة روايتي فيرغا الكبيريين
والبيئات العربية ، لست اريد ان اجيء بحكم نهائي
جازم في تأثير العرب في اعمال فيرغا الادبية ، بل
اترك هذا لكم انتم . اما انا فقد اقتصرت مهمتي على
ان اقول ، بقدر الامكان ، نورا جديدا على بعض اعمال
فيرغا الادبية ، محاولا بذلك فتح طريق جديدة لمن
يشاء ان يتوسع في دراسة فيرغا وادبه الجميل المنتزع

لغة الموسيقى كأداة للتعبير الفني

زرياب المنوفي سنة 238 هـ.

للشيخ تافيس عبد الرؤوف عجي

عضو المجمع العلمي العراقي

يأخذ احسن ما يسمع ، ويختار خير ما ينفع ،
فحصل على ثقافة جامعة في الادب والعلم والفن ،
ولكنه كان يؤثر الفناء على غيره ، وله من صوته
الجميل خير مساعد .

لازم اسحاق الموصلي - استاذ المقيمين في
عصره - ليأخذ عنه ما لم يجده عند غيره . واسحاق
الموصلي : من علماء عصره ، ومكانته من العلم والادب
والشعر ما يقول عنها ياقوت الحموي : « لو اردنا
استيعابه لطلال الكتاب ، وخرجنا عن غرضنا من
الاختصار . ومن وقف على الاخبار ، وتبع الآثار
علم موقعه » .

كان يدخل على المأمون مع اهل العلم والادب
والرواية ، ثم كان يدخل مع الفقهاء ويده في يد القضاة ،
حتى يجلس بين يدي المأمون - وكان المأمون يقول
عنه : « لولا ما سبق لاسحاق على السنة الناس ،
وشهر به من الفناء عندهم لوليت القضاة بحضرتي ،
فانه اولي به واحق واعف ، واصدق تدينا من هؤلاء
القضاة » .

أخذ زرياب عن هذا العالم الاديب ، والفنان
البارع ، واقتبس من ادبه وفنه . وكان اسحاق يعني
بهذا الفتى لما رآه عليه من الذكاء والفطنة وسرعة
الاخذ كما انه من موالى أمير المؤمنين ، فكان يحضره
مجالسه التي يعقدها في داره ، والتي كانت مجمعا

أبو الحسن علي بن نافع مولى أمير المؤمنين الخليفة
المهدي بن المنصور العباسي ، كان اسود اللون ، حلو
الشمائل ، جميل الصوت ، فصيح اللسان ، فلقبوه
« بزرياب » تشبيها له بطائر غرد ، حسن الصوت ،
يقال له « زرياب » . نشأ زرياب في بغداد ، وهي اذ
ذاك : دار السلام ، وقيّة الاسلام ، مقر الخلافة ،
ودار العلم والادب والحكمة ، ومجمع اهل الفنون
والصناعات ، حاضرة الدنيا وما سواها بادية ، وهو
ما حمل الامام الشافعي (رض) ان يقول لمن لم ير
بغداد : « ما رأيت الدنيا ولا الناس » .

وزرياب يتقلب في قصور الخلافة ، وما فيها
من ترف ونعيم ، وخمائل باسقة ، وازهار عبقة ،
وجنات تجري من تحتها الانهار ، وملاعب تميز فيها
كواعب ، قد جمعن الظرف والادب ، والفن والجمال
والدلال .

كن فتنة الناظر ، وغرة العابر ، وخل المقيم ،
مما حمل الكتاب والشعراء ان يهيموا بوصفها ،
واتخذوا من حدائقها وملاعبها المسارح التي مثلت
فيها فصول « الف ليلة وليلة » .

في هذا المحيط الزاهي نشأ الفتى زرياب ،
الذكي الفؤاد ، الدقيق النظر ، الصافي البصيرة ،
فكان يتقلب في نعيمها ، ويتفياً ظلالتها ، ويستمتع
الى كواعبها ، ويتصل بمن يرتادها من اهل الادب
والفن ، فيقتبس من علمهم ، وينهل من ادبهم :

حضر اسحاق الموصلي مجلس الرشيد ،
وتشعب الحديث في الادب والفن ، فطلب الرشيد من
اسحاق مغنياً مجيداً للصنعة . لم يشتهر مكانه اليه .

واسحاق كان يتقرب الى الرشيد بكل ما
يؤنسه ، ويظهره بما عنده من اصوات وظرف وادب ،
واراد ان يتحف الرشيد بأحد تلاميذه - من موالي
دار الخلافة - لما كان يعرف فيه من الذكاء والفطنة
وسرعة التقي عنه . فقال اسحاق للرشيد يا مولاي:
عندي تلميذ - وهو مولى لكم - اسود اللون . عذب
الشمائل ، حلو التفريد ، سمعت له نزعاً حسنة ،
ونغمات رائعة ، ماتاطة (1) بالنفس ، اذا أنا وقتته
على ما استغرب منها - وهو من اختراعي . واستنباط
فكري ، واحسن أن يكون له شأن - فان أذن لي
أمير المؤمنين قدمته اليه . ولم يعلم اسحاق ان هذا
الذي يتوسم فيه الذكاء والفطنة سيفني أمير المؤمنين
بما لم يحسنه اسحاق . وسيبغته بما وضع وأبدع .

أمره الرشيد باحضاره - لعل حاجته تكون
عنده ، وهكذا فان الساعة التي كان يترقبها زرياب
قد أتته عفواً ، فقد أمر الخليفة باحضاره اليه ليفني
امام استاذه الذي أخذ عنه .

أخذ زرياب يعد عوده ، وأحسن ربط أوتاره ،
وأختار الاصوات التي سيفني الخليفة بها ، ويبز
استاذه ويفوقه .

حضر زرياب مع استاذه اسحاق يحمل العود
الذي قد أعدّه نفسه ، وهو يختلف عن عود استاذه ،
ومثل امام الرشيد ، واستاذه فخور بتلميذه الذي
سيفني أمير المؤمنين بما استنبطه هو ولقنه إياه .

كلم الرشيد زرياب ، فأجاب زرياب بأحسن
منطق وأوجز خطاب ، مع فصاحة لسان وظرف
وادب .

سأله الرشيد عن معرفته بالفناء ، فقال : نعم
أحسن ما لا يحسنه الناس ، وأكثر ما أحسنه لا
يحسنونه ، مما لا يحسن الا عندك ، ولا يدخر الا لك ،
فان أذنت غنيتك ما لم تسمعه أذن قبلك .

بهت استاذه اسحاق مما سمع ، ولم يكن
يتوقع هذا ، فهل يجزؤ احد امام اسحاق الموصلي أن

لاهل الفنون والاداب ، وزرياب ينهل من كل ما يروق
له ، وما يؤهله ان يخاف استاذه في مكانته .

ينزل اسحاق عناية خاصة في تدريبه وتعليمه
الاصوات التي يضعها ، والايقاعات التي يبدعها .
وكان الفتى النابه ينصرف الى ما يلقىه استاذه ،
ويتأمل في اصواته ويدقق مواضع القوة فيها ، فكان
في طليعة الذين يأخذون عنه ، وهذا ما حمل استاذه
على مضاعفة العناية به ، والانصراف الى تعليمه كل
نادر وغريب ، حتى كان من طلابه الذين يفاخر في
تعليمهم وتهذيبهم .

كان زرياب كلما تلقى صوتاً من استاذه اسحاق
- او من غيره - تلقف الصوت وردده مع نفسه حتى
يتقنه ، فاذا عاد الى داره واخلى بنفسه ، أجرى
على الصوت ما يبدو له اذا ما غير في ترديده ،
فلم يزل يبدل وينقح ويهذب في الصوت ، حتى
يبتكر صوتاً جديداً جميلاً قائماً بذاته لم يسبق اليه .

وهكذا كان دأبه في كل صوت يسمعه ، او
ضربات يتلقاها من شيخ المفيين اسحاق الموصلي ،
فانه يدخل عليهما من التعديل والابتكار ما يجعلهما من
اجمل ما أبدعته قريحة هذا الفتى الناشيء .

اشتغل زرياب بهدوء وسكينة وام يطلع احدا
على ما كان يقوم به ، حتى استاذه الذي تربى بين
يديه ، واخذ عنه ، فانه لم يكن يعلم ما عند زرياب من
روائع الاصوات - وزرياب مستمر التردد الى
استاذه ، يسترق من اصواته ، ويلتقط من ظرفه
وادبه ، ويواصل التهذيب والتحسين والابتكار ، حتى
صار يطمع ان يخلف استاذه في فن مبتكر ، بل كان
يطمع الى اكثر من هذا - وهو ان يبهز استاذه بما لم
يسمع مثله .

أخذ زرياب يترقب اليوم الذي يباغت فيه
المجتمع بفن دقيق مبتكر ، يعجز استاذه - استاذ
الفن والطرب في بغداد - عن الاتيان بمثله ، مما
حمّاه على حسده وتهديده بالقتل ان لم يرحل عن
بغداد ، ويحافظ على منزله التي كان عليها في بلاط
الرشيد .

(1) لاصقة

يقول ما قاله هذا التلميذ الناشيء ؟ وصار يترقب
سماع الصوت بدهش وعجب .

امر الرشيد باحضار عود استاذه اسحق ليفني
زرياب . فلما قدم اليه وقف عن تناوله وقال : يا
امير المؤمنين : لي عود نحتته بيدي ، واررفته باحكامي
ولا ارتضي غيره - وهو بالباب - فلياذن لي امير
المؤمنين في استدعائه : فامر الرشيد بادخاله اليه .

تأمله الرشيد ، وكان شبيها بالعود الذي دفعه
له - عود استاذه - وقال له الرشيد : ما منعك ان
تستعمل عود استاذك ؟ فقال زرياب : ان كان مولاي
يرغب في غناء استاذي ، غنيته بعوده ، وان كان
يرغب في غنائي فلا بد من عودي . فقال له الرشيد :
ما اراهما الا واحدا .

فقال زرياب : صدقت يا مولاي ، ولا يؤدي
النظر غير ذلك ، ولكن عودي - وان كان في قدر
جسم عوده ومن جنس خشبه - فهو يقع من وزنه
في الثلث او نحوه . واوتاري من حريس لم يفزل
بماء ساخن يكسبها اناثة ورخاوة . وبمها ومثلتها
اتخذتهما من مصران شبل الاسد ، فلها في الترنم
والصفاء والجهارة والحدة اضعاف ما لغيرها من
مصران سائر الحيوان ، ولها من قوة الصبر على
تأثير وقع المضارب المتعاورة بها ما ليس لغيرها .
فاستبرع الرشيد وصفه واذهل اسحق ما سمع .
ثم اندفع زرياب وغنى :

يا ايها الملك الميمون طائره

هارون راح اليك الناس وابتكروا

- 3 -

سقط في يد اسحق فقد سمع من احد تلاميذه
ما فيه من الروعة والاتقان والابتكار ، مما جعل امير
المؤمنين يعجب به غاية الاعجاب ، ويؤكد على
اسحق : انه لولا ما يعلمه عنه من الصدق لانزل
المقوبة به ، اذ لم يطلع على ما قد ابتكره هذا الفنان
المبدع - وهل يترك اسحق الموصلبي زرياب معه في
بغداد يتبوا مكاتته ؟ بل يسمو فوقه فيبعده عما هو
عليه ، وتكون له زعامة الفناء في دار السلام .

فلا بد من ان يصارحه بما يكنه له صدره من
الحسد ، وان بقاءه لا يمكن ان يكون في بغداد ، والا
يؤدي به الى موته .

خلا اسحاق بزرياب وقال له : يا علي ، ان
الحسد اقدم الادواء وادوؤها ، والدنيا فتانة ،
والشركة في الصناعة عداوة ، ولا حيلة في حسمها ،
وقد مكرت بي فيما انطويت عليه من اجادتك ، وعلو
طبقتك . وقصدت منفعتك ، فاذا قد اوتيت نفسي
من مأمنها بادنائك ، وعن قليل تسقط منزلتي ،
وترتقي انت فوقي ، وهذا ما لا اصاحيك عليه - ولو
انك ولدي - ولولا رعيي لدمه تربيتك ، لما قدمت
شيئا على ان اذهب نفسك ، يكون في ذلك ما كان ،
فتخير في اثنتين لا بد لك منهما : اما ان تذهب عني
في الارض المريضة ، لا اسمع لك خبرا ، بعد ان
تعطيني على ذلك الايمان الموثقة ، وانهض بذلك لما
اردت من مال وغيره ، واما ان تقيم على كرهني ورغمي
مستهدفا لي ، فخذ الآن حذرک مني ، فلست والله
ابقي عليك ، ولا ادع اغتيالک باذلا بذلك بدني ومالي ،
فاقض قضاءك .

خرج زرياب وهو يفكر بالامر ، فهو يعلم ان
استاذه لا يحجم عن قتله اذا اقام في بغداد ، ولا بد له
من الرحيل عنها في بلاد الله الواسعة - وعلى هذا
عاد الى استاذه وابدى له رغبته في الرحيل عن
بغداد ، والتوجه الى بلاد المغرب بعيدا عن اسحاق
وبغداد - هذا روع اسحاق وزال عنه ما كان في
قلبه من هم ، وساعد زرياب بما يحتاجه من مال .

وبعد ايام فرغ الرشيد من شغل كان منغمسا
فيه ، واشتاق الى سماع اصوات زرياب ، فامر
اسحاق الموصلبي باحضاره .

واسحاق من دهاة عصره ، قد ارضى الخليفة
ورجال دولته في تصرفه ورجاحة عقله ، فهل
يعجز عن اجابة الخليفة بما يضرفه عن زرياب ؟

قال اسحاق : ومن لي به يا امير المؤمنين ؟
ذاك غلام مجنون ، يزعم ان الجن تكلمه وتطارحه ما
يزهى به من غنايه ، فما يرى في الدنيا من يعدله ،
وما هو الا ان ابطات عليه جائزة امير المؤمنين ،
وترك استعادته ، فقدر التقصير به ، والتهويس
بصناعته ، فذهب مغاضبا ذاهبا على وجهه ،
مستخفيا عني ، وقد صنع الله تعالى في ذلك
لامير المؤمنين ، فان كان به لم يفشاه ويفرط خطبه ،
فيفزع من رآه .

سكن الرشيد الى ما قاله اسحاق ، وقال :
على ما كان به ، فقد فاتنا منه سرور كثير .

وهكذا تمكن اسحاق من صرف زرياب عن بغداد ، وصرف الرشيد عن زرياب ، وصرف الهم عن قلبه .

- 4 -

نسي امر زرياب في المشرق ، ولم تقف على ذكر له بين الفنانين الذين نبغوا في العصر العباسي . ومع ان ابا الفرج الاصفهاني ترجم في كتابه (الاغاني) لاصحاب الاصوات الذين عانوا صناعة الفناء في المشرق ، فانه لم يتطرق الى ذكر زرياب والاصوات الجميلة التي وضعها - ذلك لانه اول نبوغه هدد بالقتل ان لم يرحل عن بغداد - فرحل الى بلاد واسعة ، ووجد اهلا غير اهله ، واقبالا لم يكن يتوقعه ، فكان زعيم الفناء في الاندلس والمغرب - كل هذا ولم يدون اهل بغداد ما ابدعه فتى اسحاق الموصلي الذي خرج من بغداد خائفا يترقب .

توجه زرياب الى الشام ، ومنها الى مصر ، ومنها ركب البحر قاصدا المغرب ، ولما وصل تونس اتصل بزيادة الله بن الاغلب (201 - 208 هـ) وحظي عنده ، فكان يحضر مجالسه ، ويشارك بما يدور فيها من ادب وفن ، ويغنيه ، فأعجب به ابن الاغلب وقربه اليه .

وفي احد الايام من سنة 206 هـ طلب ابن الاغلب من زرياب ان يغنيه ، فغناه بأبيات لعنترة الفوارس :

فان تك امي غرايية

من ابناء حمام بها عبتني

فاني لطيف ببيض الطبا

وسمر العوالي اذا جئتني

ولولا فرارك يوم الوغا

لقدتك في الحرب او قدتني

ففضب ابن الاغلب من تعريضه هذا ، وامر بصنع قفاه ، واخرجه من عنده ، وقال له : ان وجدتك في شيء من بلدي بعد ثلاثة ايام ضربت عنقك .

ولا نعلم سببا لتعريضه بالامير الاغلب ، وزرياب من اذكيا عصره ، فطن دقيق الملاحظة ، فهل كان

هذا هفوة من زرياب ؟ او خاطر خطر له ؟ وربما كان الامر في نفسه - وعلى كل فقد بدر منه ما اغضب ابن الاغلب ، واوجب خروجه من تونس قاصدا بلاد الاندلس .

- 5 -

وكان اهل الاندلس يتطلعون الى ما في المشرق من حضارة زاهية ، وعلم وادب وفن ، وجدوا في الاستفادة مما عند القوم ، فرحل الكثير من اهل الاندلس الى بلاد المشرق ، واخذوا عن علمائه وادبيائه ، وتعلموا فنونه وصناعاته ، ورجعوا الى بلادهم ينشرون ما حملوه معهم .

كما رغب الامراء الامويون بنوايح اهل المشرق ، وشوقوهم بالرحلة الى بلادهم ، وبذلوا لهم الاموال الوفيرة ، وقدموا لهم كل مساعدة ، ليستفيدوا من علمهم وفنهم . وكانوا يبذلون الاموال في الحصول على ما يستجد في المشرق من كتب قيمة . فقد بذل الامير الحكم لابي الفرج الاصفهاني الف دينار قيمة نسخة من كتابه الاغاني قبل ان ينتشر في المشرق .

هذا الاقبال من اهل الاندلس حمل العلماء وارباب الفنون ان يمموا شطرها ، ويرحلوا اليها ، وينشروا علومهم ومعارفهم فيها . فرحل عدد منهم الى الاندلس ، ونالوا من امرائها واهلها من الحفاوة والاحترام والاموال الوفيرة ، ما حملهم ان يستقروا في هذا البلد الطيب ، واثروا آثارا حسنة في التدريس والمحاضرة والتأليف .

كتب زرياب الى الامير الحكم بن هشام ، يعلمه بمكانته في الفناء ، ويمرض عليه التوجه اليه . فسر الحكم بهذا ، وكتب اليه مرحبا به ، وارسل لاستقباله وتدبير سفره فغنيه منصور اليهودي .

ولما كان في الجزيرة الخضراء ، بلغه وفاة الحكم ، فهم بالعودة الى بلاد العدو ، فثناه عن ذلك رسول الحكم ، وبين له شغف عبد الرحمن بن الحكم بالفناء والموسيقى . ورفع منصور اليهودي امر زرياب الى عبد الرحمن يعلمه بمكانته ، وعبد الرحمن هذا من اكثر الامراء الاندلسيين شغفا بالاداب والفنون والفناء . يحضر مجلسه العلماء والادباء وارباب الفن - وخاصة المغنون والموسيقيون - وهو يجزل لهم العطاء . سر عبد الرحمن بخبر زرياب ، وكتب اليه يعلمه بتطلعه اليه ، والسرور بقدمه عليه ،

ويمنيه ويرغبه . كما كتب الى عماله على البلاد التي سيمر بها زرياب ، ان يحسنوا اليه ، ويقدموا اليه كل ما يحتاجه ، ويوصلوه الى قرطبة .

وارسل الى احد اكابر مواليه ان يتلقاه ببغال وآلات حسنة . دخل زرياب قرطبة ليلا - صيانة لحرمه - وامر الامير ان ينزلوه في دار جميلة من احسن الدور ، وان يحمل اليها جميع ما يحتاج اليه ، وان يحملوا اليه الخلع .

وبعد ثلاثة ايام استدعاه ، ورحب به اجمل ترحيب ، ودعاه الى تناول الطعام معه ، مع اولاده الكبار ، وامر ان يفرض له ولاهله من الرواتب والخلع ما يقدر بالآلاف الدنانير سنويا ، واقطعه من الدور والمستغلات بقرطبة وبساتينها ، ومن الضياع ما يقوم بأربعين الف دينار سنويا .

وزرياب قد اعد نفسه لمثل هذا اليوم الذي كان يترقبه ، فهو في كنف امير معجب به ، مشغوف الى سماعه ، فابدى في الاصوات التي كان يغنيها بها ، فما ان سمعه عبد الرحمان حتى استهواه ، واحبه حبا شديدا ، وانطرح كل ما سواه من الفنين ، وادناه من مجلسه ، وامر بفتح باب خاص لزرياب يستدعيه منه متى اراده . وزرياب قد جمع الى ما امتاز به من الفناء ، عذبة مزاييا رقيقة : كان شاعرا عارفا بفنون الادب ، ونطف المعاشرة والظرافة ، وعنده من آداب المجالسة ، وطيب المحادثة ، ومهارة الخدمة اللوكية ، مالم نجده عند غيره من اهل صناعته .

كيف لا يجمع زرياب هذه الصفات الجمالية ، وهو الذي تربى في بلاط العباسيين ، وتقلب في نعيمهم ، وتنقل في جنائهم وخمائلمهم ، وحضر مجالسهم ، ولازم اعالي القوم في العلم والادب والفن - ربيب المهدي العباسي ، وتلميذ اسحاق الموصلي ، وخريج مدرسة بغداد دار العلم والحكمة والفن . هذه الخصال اثرت في اهل الاندلس ، حتى اتخذها ملوكهم وخواصهم قدوة حسنة فيما سنه لهم من قواعد وآداب ، واستحسنه من اطعمة وثياب ، وما ابتكره من عطور - وبقي اثر هذا فيهم الى آخر ايام اهل الاندلس منسوبا اليه .

وهكذا انتقلت الدنيا لزرياب ، فقد كان مرجع القوم في الفناء وفي التأثيرات الاجتماعية ، تسمع كلمته في البلاط الاموي ، وينقاد اليه سراة القوم ووجهائهم ، يبذلون له العطاء ويتوقعون رضاه ،

حتى قالوا : يؤثر على بلاط الامير عبد الرحمن اربعة اشخاص : فقيه : يحيى بن يحيى الليثي ، وموسيقى : ابو الحسن زرياب ، وامرأة : السلطانة طروب ، وخصي : نصر .

ومع انه كان مسموع الكلمة في البلاط الاموي ، الا ان عقله منعه عن التدخل في شؤون سياسة البلد ، وتركها لغيره .

صرف نفسه الى فنه الذي كان سبب ظهوره ونبوغه ، لانه علم حق العلم ان خير طريق للنجاح في الحياة هو تجنب ما لا نصيب له فيه ، والانصراف الى فنه الرفيع الذي ينقاد اليه الامير ورجال سياسته ، على اختلاف ميولهم ورغباتهم - وعلى هذا فلا نرى له ذكرا في الحوادث السياسية ، التي كانت على عهده ، فهو مغني البلاط وكفى .

انصرف زرياب الى الفناء والابتكار فيه ، وشغل بهذا كل مواهبه وقابليته ، واطلع على ما في الاندلس من الحان ، اخذ بعضها عن سكان البلاد الاصليين ، فكانت هذه عاملا جديدا في تطعيم الاصوات التي يبتكرها ، كان الفناء قد شغل كل وقته حتى اذا رقد في منامه ، فانه كان يواصل تفكيره في الاصوات المختلفة ، والاشعار التي تناسب كل لحن يغنيه ، فلم تنقطع سلسلة افكاره عن هذا الفن الجميل . فاذا آوى الى فراشه واهتدى الى لحن جديد ، او شعر جميل ، هب من نومه مسرعا ، فيدعو جارتيه غزلان وهنيدة ، فتأخذان عوديهما ، ويأخذ هو عوده ، ويطارحهما ليلته ما اهتدى اليه من لحن ، ويكتب الشعر الذي نظمه ، حتى اذا اتقنتاه عاد الى فراشه .

وعلى هذا قال عنه معاصروه : ان الجن كانت تطارحه الالحن ليلا فيتعلمها . وما الجن الا شغفه بهذا الفن الرفيع الذي كان قد اخذ عليه كل وقته - حتى عند النوم فانه كان يحلم في ترديد الاصوات وترجييعها ، هذا هو الالهام الفني - جنون الفن - وهو ما قيل عن كثير من الشعراء والفنانين الموهوبين الذين يبدعون في شعرهم وفنهم . وكم ذكروا ان للشعراء شياطين يوحون اليهم زخرف القول ، فيأتون بما لم يات به غيرهم . وما شياطينهم الا

انصرفهم الى الشعر وكثرة تفكيرهم فى محاسنه واوازانه ، وروائعه ، فيأتون بما لم يتهيا لهم غيرهم .

- 6 -

كان لزرياب معهد يقصده اصحاب الحناجر الرخمة، والاصوات الجميلة ، يتلقون عنه الالحن ، وما ابدعه من الاصوات والايقاعات .

ولم يكن زرياب يقبل احدا فى معهده ، الا بعد ان يقف على نبرات صوته ، وصلاح حنجرتة ، وقابليته الى تلقي الالحن والاصوات ، وعلى هذا فقد كان يختبر من يقصده للأخذ عنه - وقد حدثنا المقرئ عن كيفية اختباره لمن يقصده فقال :

« وكان اذا اراد ان يختبر المطبوع الصوت - المراد تعليمه - من غير المطبوع ، امره ان يصيح بأعلى صوته : يا حجام . او يصيح : آه . ويمد صوته ، فاذا سمع صوته بهما صافيا نديا قويا مؤديا لا يعتربه غنة ولا حبسة ، ولا ضيق نفس ، عرف انه سوف ينجب ، وأشار بتعليمه ، وان وجده خلاف ذلك ابعده .

وهكذا بعد ان يختبر من يقصده ، ويتحقق صلاحه ، يسلمه الى الذين يأخذون عنه ، فيتعهدون تدريبه تدريبا اوليا ، حتى اذا وقف على مبادئ هذا الفتى الجميل ، تعهده بنفسه مع الذين يأخذون عنه . فاذا حضر التلميذ عنده للأخذ عنه ، كان يرشده الى كيفية الجلوس ، وطريقة اخراج الصوت من الفم ، والطرق التى يحسن بها نبرات صوته ، بحيث يجعله يناسب اللحن والايقاع اذا ما غنى .

قال المقرئ فى هذا :

« وكان اذا تناول الالتقاء على تلميذ يعلمه، امره بالعود على الوسائد المدورة المعروفة بالمسورة ، وان يشد صوته جدا - اذا كان قوي الصوت - فان كان لينه ، امره ان يشد على بطنه عمامة ، فان ذلك مما يقوى الصوت ، ولا يجد متسعا فى الجوف عند الخروج عن الفم . فان كان الص الاضراس ، لا يقدر

ان يفتح فاه ، او كانت عادته زم اسنانه عند النطق، راضه بان يدخل فى فيه قطعة خشب عرضها ثلاث اصابع بيبتها فى فمه ليالي حتى ينفرج فكاه ، وهو رأى عالم بنبرات الاصوات ومخارجها ، وما يساعده على تهذيبها واطهارها بصورة جلية .

اخذ عن زرياب اولاده وكثير من اهل الاندلس رجالا ونساء، ونشروا فنه فى طول الاندلس وعرضها، فكانوا دعاء نهضة فنية ، طغت على الاندلس ، وتعدتها الى شمال افريقية ، وطبعتها بطابع الالحن التى ابدعها زرياب . بقيت هذه النهضة الى القرن الثامن للهجرة ، وهي تسير على القواعد التى وضعها زرياب والالحن التى ابتكرها وابدع فيها ، مما جعل ابن خلدون يقول عن تأثير غنائه :

فأورث بالاندلس من صناعة الغناء ، ما تناقلوه الى ازمان الطوائف ، وطما منها باشبيلية بحر زاخر، وتناقل منها بعد ذهاب غضارتها الى بلاد العدوة بافريقية والمغرب ، وانقسم على انصارها ، وبها الآن صباية على تراجع عمرائها وتناقض دولها .

ومن اخذ عنه وبرز فى الغناء اولاده العشرة (1):

1 - عبيد الله كان خليفة والده ، واعلا اخوته فى الغناء .

2 - عبد الرحمان : وهذا يابى عبيد الله فى الغناء ، وكان يشوب علمه تبه وزهو وكثرة العجب بغنائه ، وهذا مما سبب له مشاكل كثيرة فى مجالس الغناء التى كان يقيمها (2) ، ويذكر ابن خلدون ان عبد الرحمن هذا خلف والده فى هذه الصناعة ، ولربما عمر اكثر من عبيد الله ، فكان المرجع اليه فى الغناء .

3 - اما محمد بن زرياب فكان مؤنثا .

4 - واما القاسم بن زرياب : فكان احد قهم غناء مع تجويده .

5 - واما احمد بن زرياب : فكان قد غلب عليه الشعر .

(1) كان لزرياب اربعة اولاد يوم دخل الاندلس ، وهم : عبد الرحمن وجعفر ، وعبيد الله ويحيى . وولد له فى الاندلس اربعة بنين : محمد وقاسم واحمد وحسن ، وبنتان : علية وحمدونة .

(2) نفع الطيب : 4 : 125 .

6 - واما حمدونة بنت زرياب: فكانت متقدمة في
اهل بيتها ، محسنة لصناعتها ، تزوجها الوزير
هشام بن عبد العزيز .

7 - اما علية بنت زرياب : فطال عمرها بعد
اختها حمدونة ، ولم يبق من اهل بيتها غيرها ،
فافتقر الناس اليها ، وحملوا عنها ، فكانت مرجعا
للمعهد الزريابي ، يقصدها اهل الفن ، ويأخذون
عنها .

ومن جواربه :

1 - مصابيح : جارية الكاتب ابي حفص عمر
بن قلهيل ، وهي ممن اخذ عن زرياب ، وصارت غاية
في الاحسان والتبذل وطيب الصوت .

مر ابن عبد ربه (3) فسمع غناءها ، واشتاق ان
يدخل اليها فأبى مولاها . فقال ابن عبد ربه الى
مسجد قريب من المكان ، واخذ لوحا من صبي وكتب
هذه الايات وارسلها الى مولاها :

يا من يضمن بصوت الطائر الفرد
ما كنت احسب هذا الضن من احد

لو ان اسماع اهل الارض قاطبة
اصفت الى الصوت لم ينقص ولم يزد

فلا تضن على سمعي مقلده
صوتا يجول مجال الروح في الجسد

لو كان زرياب حيا ثم اسمعه
لذاب من حسد، او مات من كمد

اما النبيذ فاني لست اشربه
ولست آتيك الا كسرتي بيدي

فلما قراها مولاها ، خرج اليه حافيا ، وادخله
مجلسه ، وتمتع ابن عبد ربه من سماعها .

2 - متعة : جارية زرياب ، اعتنى في تاديبها
وتعليمها احسن اغانيه ، وشبت رائعة الجمال ،
وتصرفت بين يدي الامير عبد الرحمن بن الحكم ،
تغنيه مرة، وتسقيه اخرى، وكان الامير معجبا بجمالها
وبصوتها ، فلما فطنت لاجاباه بها ، ابدت له دلائل
الرغبة ، ولكنه ابي الا التستر ، فنظمت هذه الايات
وغنته بها :

(3) صاحب « العقد الفريد » .

يا من يغطي هواه
من ذا يغطي النهارا ؟

قد كنت املك قلبي
حتى علقت فطارا

يا ويلتاه اثمراه
لي كان ، او مستعارا ؟

يا بابسي قرشي
خلعت فيه المدارا

فلما انكشف لزرياب امرها ، اهداها الى الامير
عبد الرحمن ، وحظيت عنده .

3 - اما هنيذة وغزلان فقد تقدم الكلام عنهما .

ومما اجراه على العود في الاندلس :

1) كانت اعواد القوم ذات اربعة اوتار ، فاضاف
هو اليها وترا خامسا ، واتخذ الاوتار من حرير لم
يفزل بماء ساخن يكسبها اناثة ورخاوة وقد تقدم
الكلام عنها .

2 - كانت الاعواد ثقيلة الوزن ، تجهد الضارب،
وربما عاقته عن تادية الضرب كما يسوي ، فجعل
زرياب عوده صغير الحجم ، خفيف الوزن ،
جميل الشكل ، دقيق الصنع ، يستهوي
النفس ، ويمثل جمال الالحن التي يضربها زرياب .

3) كانت مضارب العود من خشب ، ثقيلة على
الانامل ، تؤثر في الاوتار عند الضرب ، وربما
قطعتها او افسدتها في ايام معدودة . فعدل عنها
زرياب بأن اتخذ المضرب من قوادم النسر : خفيف على
الانامل ، رقيق بالاوتار ، لين في اليد ، مرن
الاستعمال ، يحدث اهتزازات في الاوتار ، ما لم
تحدثه المضارب الخشبية الصلبة .

ومما سنه في الغناء : ان كل من افتتح الغناء
يبدا بالنشيد اول شدوه باي تقرر كان، ويأتي اثره
بالبسيط، يختم بالمحركات والاهواج تبعا لمراسيم
زرياب .

ذكر المؤرخون ان اسلم بن احمد بن
سعيد الف كتابا في الاصوات التي وضعها

الاجتماعية فيها : الطعام والازياء وتصنيف الشعر
وابتكار عطور وادهان وغير ذلك .

ففى الطعام وما يتبعه من لوازم :

1 - كان زرياب اول من اجتنى بقلة الهليون
المسماة بلسانهم بالاسفراج ، ولم يكونوا يعرفونها
قبله .

2 - وعلمهم زرياب طبخ النقايا ، وهو مصطنع
بماء الكزبرة الرطبة ، محلى بالسنبوسق والكباب ،
ويلي هذا عندهم لون التقلية المنسوبة اليه «زريابية» .

3 - كان الاندلسيون يتخذون الآنية الرفيعة
الثلثي ، ويحلونها بالذهب والفضة ، ويتنافسون فى
هذا ، فاتخذ زرياب آتيته من الزجاج الجميل ،
فقلده الاندلسيون فى هذا .

4 - فضل زرياب استعمال سفر الاديم على
الموائد الخشبية لتقديم الطعام ، لان الوضر يزول عن
الاديم باقل مسحة ، فأخذ الاندلسيون بهذا .

5 - كان زرياب يفضل فرش الانطاع الاديمية
الناعمة اللينة على ملاحف الكتان ، فانتشر هذا فى
الاندلس .

واما تأثيره على الازياء فى الاندلس : فانه راي
ان يلبس كل صنف من الثياب فى زمانه الذى يليق
به . فيكون ابتداء الناس بلباس البياض . ثم يلبسون
اللون من يوم مهرجان اهل البلد المسمى عندهم
« بالعنصرة » الكائن فى ست بقين من شهر يونيو
(حزيران) ، الى اواخر شهر اكتوبر (تشرين الاول) .
وان يلبسوا بقية السنة الثياب الملونة .

ورأى ان يلبسوا فى الفصل الذى بين الحر
والبرد المسمى عندهم « الربيع » من مصبغهم جباب
الخز والملحم والمحرر والدراربع التى لا بطائن لها ،
لقربها من لطف ثياب البياض .

وكذا راي ان يلبسوا فى آخر الصيف وعند
اول الخريف المحاشي المروية والثياب المصمتة وما
شاكلها من خفائف الثياب الملونة ، ذوات الحشو
والبطائن الكثيفة ، وذلك عند قرص البرد فى
الغدوات ، الى ان يقوى البرد ، فينتقلون الى اثنى
منها من الملونات ، ويستظهرون من تحتها اذا احتاجوا
الى صنوف الفراء .

زرياب ، ومما يؤسف له ، اننا لم نعلم
على ذكر لهذا السفر النفيس ، الذى جمع
روائع الفن وما ابتكره زرياب من اصوات جميلة ، وما
نظمه من شعر يقنى به . فان هذا الكتاب كان يطلعنا
على الحان رائعة ، واصوات مبتكرة ، ابدعتها
قريحة زرياب - طمست مع افول شمس العرب فى
الاندلس ، ولم يبق منها ، الا صياحة تذكرنا بما كان
من التأثير القوي فى الفناء الاندلسي الذى قرر
قواعده ، معلم الناس الفن والمروءة (زرياب) .

زرياب من نوادر عصره ، جمع - الى تفوقه فى
الفناء - علوما وفنونا وادابا . ذكروا عنه انه كان
يحفظ عشرة آلاف مقطوعة من الاغاني بالحانها ،
وهذا ما ساعده على حل كتاب الموسيقى لبطليموس ،
لان هذا العدد هو غاية ما ذكره بطليموس - واضع
هذه العلوم ومؤلفها - فى كتابه .

كان زرياب شاعرا ، ويمتاز شعره بالركة
والعذوبة ، كيف لا يكون شعره رائقا ، وقد صدر
عن شيخ الفنانين صاحب الاصوات المبتكرة البديعة ،
والالحن التى لم يزل تأثيرها فى الشرق والغرب .
ومن شعره :

علقتها ربحانة هيفاء عاطرة نضيره
بين السمينة والهزيلة والطويلة والقصيره
لله ايام لنا سلفت على دير المطيره
لا عيب فيها للمتيسم غير ان كانت قصيره
وقوله ايضا :

ولو لم يشقني الظاعنون لشاقتني
حمام تداعت فى الديار وقوع

تداعين فاستبكين من كل ذا هوى
نوائح ما تجري لهن دموع

كان عالما بالنجوم واحكامها ، يعرف الاقاليم
السبعة وما فيها من عوارض طبيعية ، ومدن وعمران ،
وما فى هذه من سكان وخيرات ، ويعرف طبائع
ومبول سكانها ، وما تشتهر به كل مدينة ، فاذا تكلم
بهذا تكلم عن علم ومعرفة .

لم يقتصر تأثير زرياب على اهل الاندلس فى
الفناء فقط ، بل كان له تأثير كبير على الحياة

حدث علوية المغني قال: كنت مع المأمون لما خرج الى الشام ، فدخلنا الى دمشق ، وطفنا فيها ، وجعل يطوف على قصور بني أمية ويتبع آثارهم ، فدخل صحننا من صحنها ، فاذا هو مفروش بالرخام الاخضر كله ، وفيه بركة ماء يدخلها ويخرج منها من عين تصب اليها و . . . واقبل المأمون علي فقال : غني ونشطني ، فكان الله عز وجل انساني جميع ما أحفظه الا هذا الصوت :

لو كان حولي بنو أمية لم ينطق رجال اراهم نطقوا

فنظر الي مقضبا وقال : عليك لعنة الله وعلى بني أمية ، وبلك قلت لك سرني ام سؤني ، ألم يكن لك وقت تمدح فيه بني أمية الا هذا الوقت ؟

فتجلدت عليه ، وعلمت اني قد اخطات ، فقلت: اتلومني على أن اذكر بني أمية ، هذا مولاكم زرياب عندهم يركب في مائتي غلام مملوك له ، ويملك ثلاثمائة الف دينار وهبها له ، سوى الضياع والخيل والرقيق وأنا عندكم اموت جوعا .

هذا هو زرياب الذي ترك بغداد مكرها ، وعاش في الاندلس مترفا مكرما ، وصار مضرب المثل في الشرق والغرب .

واما تأثيره على تصفيف الشعر : دخل الاندلس وجميع من فيها - من رجل او امرأة - يرسل جمته مفروقا وسط الجبين عاما للصدفين والحاجبين ، فلما راوا تحديفه هو وولده ونساءه لشعورهم ، وتقصيرها دون جباههم ، وتسويتها مع حواجبهم ، وتدويرها الى آذانهم ، واسدالها الى اصداعهم - هوت اليه انفسهم ، فاستحسنوه وقلدوه .

وابتكر ادھانا ومعاجين لطيفة وروائح عطرية تزيد من جمال البشرة وتكسيها رونقا وبهاء .

كان مارك الاندلس والمترفون يستعملون ذرور الورد وزهور الريحان وما شاكل ذلك من ذوات القبض والبرد لطرذ الصنان والروائح الكريهة ، فلا تسلم ثيابهم من وضر . فداهم على تصعيدها بالملح وتبييض لونها ، فجرّبوه وحمدوه على ذلك .

هذا تأثير زرياب على اهل الاندلس ، فقد كان ناملا قويا في تهذيب اغانيهم وتنسيق ثيابهم ، وتهذيب طعامهم وآنيتهم وادابهم الاجتماعية ، فهو قدوة القوم في كل ما يصدر عنه . وعلى هذا فان اهل الاندلس احلوا زرياب بالمحل اللائق به ، وبخدماته الجليلة التي سنها لهم . فقد حظي فتى اسحاق الذي ترك بغداد مكرها من الفنى والترف والعزة ، ما جعله مضرب المثل في الاندلس ، ويتعدها الى شمال افريقية ، ويتجاوزها الى بلاد الشرق . ومن ذلك ما رواه الصابي في كتابه الهفوات النادرة قال : (ص : 385 - 386)

دليل جديد على عروبة الأرقام المتعملة في المغرب العربي

أبوفارس

« تحفة الناسمين في شرح ارجوزة ابن الياصمين » ،
(مخطوط بخزانة مكتبة الهند بلندن والخزانة العامة
بالباط) وسبط المارديني المتوفى سنة 900 هـ ويسمى
« اللعة الماردينية في شرح الياصمينية » (مخطوط
ببرلين والقاهرة واسطنبول) وله ارجوزة في اعمال
الجدور توجد بخزانة الاسكوريال (راجع بحث الاستاذ
محمد الفاسي مجلة « رسالة المغرب » سنة 1942
السنة الاولى عدد 1) وممن شرح الارجوزة سعيد
العقباني التلمساني الملقب برئيس العقلاء (نيل الابتهاج
ص 106) .

وكتاب تلقيح الافكار هذا يعتبر اقدم وثيقة
تحدثت عن اعداد الفبار واكدت انها مغربية اي عربية
الاصسل .

وننشر صفتين مصورتين رقم 8 - 9 من هذا
الكتاب اولهما : « واعلم ان الرسوم ...

يوجد في المكتبة العامة بالرباط مخطوط تحت
عنوان : « تلقيح الافكار في العمل برسم
الفبار » (رقم ك 222) من تأليف ابي محمد
عبد الله (او عبد الرحمن بن حجاج (1) المعروف
بابن الياصمين والذي ولد بفاس اواسط القرن
السادس وهو بربري من بني حجاج بقلمه فندلاوة ،
اخذ العلوم الرياضية عن شيخه محمد بن قاسم وقد
قال ابن البار في التكملة : « وله ارجوزة في الجبر
قرئت عليه وسمعت منه باشيلية في سنة 587 »
(ص 531) وكان احد خدام المنصور وولده الناصر
كما في « الذخيرة السنية » وقد وجد ذبيحا بمراكش
سنة 600 او اوائل 601 هـ ، وتوجد نسخ من ارجوزته
في الجبر والمقابلة بخزائن باريز وبرلين واكسفورد
والاسكوريال والقاهرة ، ومن شراح الارجوزة حسب
بروكلمان ابن الهائم المتوفى سنة 815 هـ
(وهو مخطوط باكسفورد والقاهرة) والقلصادي وهو

(1) وقيل اسمه عبد الله بن محمد بن حجاج (الاعلام للمراكشي ج 6 ص 91) مخطوط والتكملة
ص 531 والجدوة ص 237 .

التي وضعت للعدد تسعة اشكال بنزبت عليها جميع العدد
 وهي التي لسا اشكال الغبار وهي هذه ٢١ ٣ ٤ ٥ ٦ ٧ ٨ ٩ و
 وقد يكون ايضا هكذا ٢١ ٣ ٤ ٥ ٦ ٧ ٨ ٩ ولان الناس
 عندنا على الوضع الاول ولواضحت مع نفسك على تبدلها
 او عكسها الحزاز وجه العمل على حاله لا يتبدل وقد صنعت
 قوم من جنسوا ارض مثل الحديد والخاس من كل شي منها
 اعداد ليه ويضرب بها ما شاء من غير نفس والحجوا وما
 اهل الهند فانهم يتحدون لوحا سودا يمدون عليها العمام ويتقنون
 فيه ما شاءوا ولذلك لسا حساب الغبار وعلى الحقيقة للبين
 الالمزاد والحجوا واعلم ان هذه الحروف ليست بدالة على
 الاحاد وحدها بل هي دالة على العشرات والمئين والالاف
 وعلى سائر المراتب المذكورة فانها في بيت الاحاد
 فهو دال على الاحاد وما كان منها في المرتبة الثانية التي هي منزلة
 العشرات فهو دال ايضا على العشرات قليلا وليس لها ان يات
 واحد وهو عشرون وان كان اثنان فذلك عشرون ولذلك لا يتعين
 وكذلك ما كان في البيت الثالث التي هي منزلة المئين وبنيتها
 فهو ايضا دال على المئين ولذلك لا الاله وتسمى اينا وميسا
 ويكررها وسائر المراتب فان بيت العشرات هو عشرون
 عشرون هذه الاشكال يقول احاد فمحطت ويقول عشرون فمحط
 في المرتبة الثانية منزلة العشرات علامه واحدا هي عشرون واحدا
 على هذه الصورة عا ولو كانت عشرون لمجعت اثنين لان

لأن العشرات في بيئاتهم به الإحاد والمئين لذلك وكذا
 جميع مراتب الأعداد إلى ما لا نهاية فان قيل لك كيف
 تترك العشرتين فقد ذكرنا ان العشرتين اثنين في بيت العشر
 لكن ان جعلت اثنين لم يعرف انهما عشرات اذ ليس معهما عدد
 في بيت الاحاد من غيرنا على ان ما بعد عشرات فيجعل اثنين
 وقبلها صغر فتكون الانسان في المراتب الثانية بتلك العشرات
 لان السبعين بعد واحد وانما ذلك على ما بعده اذ كانت المنزلة فارغ
 ولا يكون بعد مئة من ازل وصوره المسلمه في وان قيل لك
 كيف صور مئتيه ومئتين ومائتين وعشرين على ما تقدم بل هكذا
 في وان قال مئتيه وثلثه الاف تلو هكذا في ه ه ه
 وصوره عشر هكذا في ا وصوره احد عشر هكذا في ا ف عشر
 هذا على جميع ما ارد عليك من العدد الى ما لا نهاية له فقد
 ذكرنا المئين لانه بين الاثنى عشر مئتيه ومن هنا ناتي على
 ما شرحناه ان شاء الله تعالى ه ه

الثاني في العدد الصحيح وما يتولد به وينقسم اليه

الفصل الاول في الضرب اعلم ان ضرب الاعداد بعضها
 وبعضها هو ان تضعف احد العددين بعدد الثاني بعدد
 الاخر من الاحاد واذا كان معناه هذا فما ضرب في الواحد
 او ضرب الواحد فيه لا يتغير اعلم انك اذا ضربت عددا

الاستيعاب في لينغراد

للكاتب الدكتور بيللايف (لينغراد)

تلقينا من الاستاذ فيكتور بيللايف مدرس العربية في جامعة لينغراد المقال التالي يشرح فيه بطريقة عفوية مبسطة عمل الجامعة والمختصين في حقل اللغة العربية فصيحها وعماميتها .

الوسطى معتمدا على مؤلفات آداب اللغة العربية وبعض فروع العلوم الفيلولوجية مثل علم البلاغة والبديع والبيان وتاريخها . وبعد وفاته تأصل هذا البحث والتدريس في الاتحاد السوفياتي وتطور كثيرا ، ونشرت كتب ومقالات لعلماء عندنا في بلادنا وفي الخارج .

والآن يدرس في جامعتنا ويدرس اللهجات العربية الحديثة الأستاذ فيكوف . وهو الذي بحث اللهجات العربية في آسيا الوسطى بالقرب من مدينة بخارا وفي منطقة وادي قاشقا دريا في اوزبكستان . وهو يدرس بعض اللهجات ، مثل اللهجة السورية واللهجة المصرية ، نظريا نحويا . ويدرس نظاما نحويا للهجات العربية كلها . وقد نشر عن قريب قاموس اللهجة العربية البخارية (القاموس العربي - الروسي) ونشر بعض النصوص المسجلة من تلك اللهجة .

الأستاذ بيللايف يبحث الآن بعض المؤلفات الأدبية القديمة ليستخرج منها كلمات وعبارات ولفات ومواد نحوية من طبيعة اللهجات بفرض انشاء نبذة نحوية لتلك الكتب ، مثل الف ليلة وليلة أو رحلة

في لينغراد مركزان للبحث في ميدان الاستشراق وخاصة في ميدان الاستعراب ، هما معهد الاستشراق لاكاديميا العلوم ، والجامعة ، غرفة الاستعراب باسم المرحوم عضو الاكاديميا اغناطيوس كراتشكوفسكي يشتغل بالبحث عن مشكلات تاريخ الاداب العربية والتاريخ وتاريخ الثقافة العربية واللغة العربية اليمنية القديمة ولهجاتها المعاصرة . كل اعضاء هذه الغرفة من خريجي جامعتنا اعني القسم العربي للكلية الشرقية بهذه الجامعة . كان الاستاذ ا. كراتشكوفسكي رئيسا لتلك الغرفة وللقسم او الكرسي العربي بالجامعة كذلك وكان يدير الامور الاستعمارية في لينغراد ، بل في كل الاتحاد السوفياتي ، كما كان ذا نفوذ مسموع الكلمة وكان مشهورا لا في بلادنا وحدها بل في كل العالم بين العلماء والادباء في الشرق والغرب .

توفي الاستاذ عام 1951 رحمه الله . وكان أسس في بلادنا بعض فروع الاستعراب ، من البحث والتدريس ، التي لم تكن قبله في الاكاديميا ولا في الجامعة وهي البحث والدرس عن تاريخ الادب العربي الحديث (في القرون 18 - 19 - 20) وعن اللهجات العربية الحديثة المعاصرة والقديمة ، في القرون

الإطروحة التي موضوعها « النظام النحوي » من لفظة
تلك الكتابات مقارنة باللهجة العربية الجنوبية المعاصرة
مثل السقطري والمهري والحضرمي الخ .

ويبحث تلميذنا الكساندر بابووكين قواعد
الأفعال في اللهجات العربية الشرقية والمفريية . إنما
هو في ابتداء بحثه ونحن نتمنى له التوفيق وننتظر من
زرعه حصيلة طيبة .

مكاربوس بطريرك انطاكية لابنه بولص الحلبي الخ .
وتلك الكتب مشربة بالكلمات والمبارات العامية .

يبحث احد تلاميذنا في المعهد الشرقي يعقوب
غرونتفست عن الكتابات المنقوشة باللغة السبئية
المكتوبة بالخط المسند والمنقولة الى الاتحاد
السوفياتي في السنة الماضية وهو الذي دافع عن

الاستشراق في رومانيا

وحيثما يشير الكاتب الى النشاط الذي تضطلع به هيئة التدريس بهذه الجامعة يقول : « انها تقوم علاوة على النشاط التعليمي ، بنشاط واسع آخر في المجالين العلمي والثقافي يتجسم في اعداد الكتب اللازمة للتدريس ونشر ابحاث علمية في ميادين اللغة والادب العربي والعلاقات الثقافية الرومانية العربية ونشر تراجم اهم المؤلفات العربية الكلاسيكية والحديثة عن الادب العربي وغيرها كما يقوم اعضاء هيئة التدريس بنشر مقالات وتراجم عن الشعر العربي في الجلات الادبية الرومانية بصورة مستمرة حيث يعرفون بذلك القراء الرومانيين قيم الحضارة والادب العربي ، وحيث يشاركون في تعارف متبادل احسن وفي التقارب بين الامتين الصديقتين الرومانية والعربية »

ويضيف صاحب المقال قائلا : « كما ان هيئة التدريس تشترك كذلك في التعاون مع الاختصاصيين المستشرقين الاخرين برومانيا في نشاط جمعية المستشرقين التي أسست مؤخرا والتي تنظم دوريا ندوات علمية تقدم فيها بحوث قيمة في علم الاستشراق تنشر في مجلة الجمعية وفي مجلة الجامعة وفي مجلات علمية اخرى وفي مجلدات خاصة » .

ويذكر الكاتب انه « بينما كان يشغل في هذا القسم استاذ واحد فقط بعد افتتاحه في عام 1957 ، وصل عدد الاساتذة الذين يقومون بالتدريس في هذا القسم الى خمسة اساتذة ومن بينهم استاذة حصلت على درجة الدكتوراه في علم اللغة من جامعة بوخارست

نشرت مجلة « الاقلام » العراقية الزاهرة ، في عددها السادس من السنة الثامنة 1972 ، مقالا حول « دراسة اللغة العربية في رومانيا » وانها به الاستاذ نيقولا دوبريشان من بوخارست ، وقد اشار صاحب المقال الى انه قد مر حتى الآن خمس عشرة سنة منذ تأسيس قسم اللغة العربية والادب العربي ضمن مجموعة اللغات الشرقية التي تدرس بجامعة بوخارست ، وقد كون هذا المعهد خلال هذه الفترة عددا كبيرا من الاختصاصيين الذين يعلمون اللغة العربية والذين يعملون في رومانيا على دعم التعاون والتطور المستمر للعلاقات الرومانية العربية في مختلف الميادين « ومن المميزات التي تنفرد بها هذه الجامعة في تدريسها اللغة العربية كونها « الى جانب اعداد الطلبة اعدادا نظريا عميقا يكمُن في دراسة قواعد اللغة العربية والادب العربي وتاريخ وحضارة العرب وعلم الاسلام وعلم اللهجات وغيرها من العلوم النظرية يتلقى الطلبة كذلك اثناء سنوات الدراسة اعدادا عمليا بمعنى التعرف على احدى اللهجات الدارجة واستخدامها عمليا » .

كما ان الاعداد المحصول عليه من جامعة بوخارست يتم اكمالها عند الضرورة ، بفترات للتخصص في البلدان العربية والاشتراك في دراسات دورية قصيرة الامد تنظمها بعض البلاد العربية من اجل المستعربين » .

الكتب والمخطوطات العربية أصبحت الآن رصيـدا
ثمينا من الكتب العربية التي تمتلكها مكتبة مـرر
اكاديمية العلوم الرومانية في مدينة « طلوج » .

ويشير صاحب المقال كذلك الى ان الاقبال يزداد
على تعلم اللغة العربية ببلاده نتيجة للتوسع المستمر
للعلاقات الرومانية العربية وزيادة الرغبة في التعرف
احسن فأحسن على حضارة الامة العربية ،
وتدرس اللغة العربية - عدا في الجامعة الشعبية
بيوخارست ، تدرس كذلك في الجامعة الشعبية
بمدينة « تيميشوارا » كما تدرس في قسم اللغة
العربية بجامعة بوخارست المشار اليه آنفا ويحضر
هذه الدروس هواة تتراوح اعمارهم بين 15 و 65
سنة « ، وينوه الا انه ابتداء من سنة 1971 بدأ تدريس
اللغة العربية بصورة تجريبية لتلاميذ الابتدائية في
مدرسة لمدة عشر سنوات ذات التدريس بلغات اجنبية
ويتنبأ الكاتب في ذيل مقاله الى انه سوف تحقق
انجازات ضخمة في ميدان الاستعراب ببلاده في
المستقبل القريب ، كما يشير الى انه كتب هذه
العجالة بمناسبة مرور خمس عشرة سنة على تأسيس
قسم اللغة العربية والادب العربي بجامعة بوخارست .

عام 1971 ، بأطروحة تناولت بالبحث موضوعا في
علم اللغة له علاقة باللغة العربية ، كما يعد - في
الوقت الراهن ، استاذان آخران للقسم أطروحتين
للدكتوراه كذلك أحدهما عن موضوع : طرق تكوين
المصطلحات السياسية والاجتماعية في اللغة العربية
المعاصرة ، والثاني عن رحالة عربي في البلدان
الرومانية في القرن السابع عشر .

وحيثما يشير الى تاريخ اهتمام الرومانيين
بالاستشراق يقول : « وعلى الرغم من ان دراسة
نظامية اللغة العربية بدأت في رومانية بعد تأسيس
قسم اللغة العربية في نطاق جامعة بوخارست ، كانت
توجد في رومانيا اهتمامات قديمة بعلم الاستعراب
وبالماضي الغني للعلاقات الرومانية العربية ، ونكتفي
بالإشارة هنا الى أسى اثنين من المستشرقين
الرومانيين المشهورين : أحدهما واسمه ديميتري
كانتير ، عاش في بداية القرن الثامن عشر وهو علامة
عظيم تمت ترجمة مؤلف له في اللغة العربية في عام
1705 تحت عنوان « صلاح الحكيم وفسادة العالم
الدميم » والآخر هو تيموتي تشيباريو وقد عاش في
منتصف القرن التاسع عشر وامتلك مجموعة غنية من

الوشائج العريقة بين الخليج العربي والمغرب الأقصى*

عبد العزيز بن عبد الله

الأستاذ في جامعة الرباط ودار الحديث الحسنية

كلام الفرس جاء حيث يقولون مهمد لمحمد ولذلك نرى أن كلمة الاهواز اسم عربي أطلق على هذا الاقليم في العصر الاسلامي وتسمى بهذا الاسم في المغرب الأقصى ناحية مراكش عاصمة المرابطين والموحدين والسعديين ولعل لهذه التسمية صلة بما يحكيه بعض المؤرخين حول اسباب اطلاق اسم سوس على أقصى جنوب المغرب في الاطلس الصغير فيروي المؤرخ الروماني سالوست (Salluste) المتوفى في عام 35 قبل الميلاد (في الكتاب الذي صنفه حول « حرب يوغورتا » ملك نوميديا من اسر امراء البربر والبولود عام 154 قبل الميلاد) أن الفرس الذين حاولوا الاغارة على شبه الجزيرة الايبيرية (اي اسبانيا والبرتغال) في عهد هيراكلس (Héraclés) (وهو هيركول اللاتيني الذي سميت به اساطين هرقل اي مضيق جبل طارق شمالي المغرب الأقصى) قد تحولت اشريعة مراكبهم بشدة الريح الى المحيط الاطلنطي فوصلوا

الخليج عريق في العروبة وقد استعمل الجغرافي اليوناني سترابون (Strabon) المتوفى بين 21 و 25 ميلادية كلمة الخليج العربي في وصفه للحملة التي قام بها الرومان على بلاد العرب ويرجع اطلاق المؤرخين اسم الخليج (1) الفارسي الى القائد اليوناني نيركس بعدما عاد من الهند مبعوثا من سيده الاسكندر الاكبر حيث لم يمر الا من الساحل الشرقي فظن ان المنطقة كلها فارسية وتتجلى عروبة المنطقة أيضا منذ اعرق (2) العصور في الاسم الذي تحمله مقاطعة « خوزستان » الايرانية التي كانت تسمى من قبل الفرس الى السنوات الاخيرة « عربستان » اي « بلاد العرب » ولا تزال تقطنها الى الآن قبائل عربية مختلفة كبنو تميم الذين ينتسب اليهم الخليفة الاول أبو بكر الصديق رضي الله عنه « وعربستان » هذه هي التي كانت تسمى « الاهواز » والاهواز كما جاء في معجم البلدان جمع هوز وأصله حوز لانه ليس في

(x) هذا نص محاضرة القاها الاستاذ عبد العزيز بن عبد الله في ابي ظبي يوم رابع يناير 1973 .
(1) ودرج على ذلك المؤرخ الروماني بلين (Pline) المتوفى عام 79 م حيث سمي الخليج باسمه الصحيح وهو الخليج العربي .

(2) وقد ندد الرائد الدنماركي كارستن نيبور عام 1762 م (1176 هـ) بهذا الزعم الذي رده جغرافيون صوروا جزءا من بلاد العرب كانه خاضع - كما يقول نيبور - لحكم ملوك الفرس كما أبرز هذه الحقيقة الرحالة الانجليزي هورو دريك اوين في القرن العشرين رغم تواطؤ الكثير من الجغرافيين المعاصرين على الغض من عروبة الخليج .

تشابك الدوحة العربية بالدوحة الفينيقية في كتابه « ملوك العرب » .

وبذلك يكون الفينيقيون قد هاجروا من الخليج الى البحر المتوسط منذ خمسة آلاف سنة كما يقول المؤرخ رولنسون .

وقد وسع الفينيقيون شبكة مستعمراتهم على سواحل المتوسط وأسوا ليكس واوتيك ومالقة وقادس (بالاندلس) وهبو (عنابة وبنزرت) ثم تجاوزوا حسب سترابون أساطين هرقل وتأكد ذلك بعد قيام خبراء بحفريات على طول سواحل المحيط الاطلسي مما قد يؤكد النظرية القائلة بأن هانون قد وصل في رحلته في القرن الخامس قبل الميلاد الى درعة والساقية الحمراء وربما غينيا في قلب القارة الافريقية وقد اصبحت اللغة البونيقية (Langue punique)

المتمدة من الكنعانية العربية مع تطعيمات محلية لغة اشبه بعامية افريقيا الشمالية في العصر الحاضر نشرنا بحثا عنها في مجلة « اللسان العربي » (التي اشرف بادارتها ورياسة تحريرها وهي لسان « المكتب الدائم لتنسيق التعريب في الوطن العربي ») .

وخلاصة ما في هذا البحث انه عثر في البرازيل على حجارة مكتوبة بالعربية اليونانية تحمل تاريخ 125 قبل الميلاد نتج عن مقارنتها باللهجة الدارجة اليوم في المغرب العربي ان هذه اللهجات ليست سوى امتداد اصيل للغة بني كنعان العربية التي استعملت قبل الاسلام في كل من الخليج العربي قبل البعثة المحمدية بأزيد من الف عام ، وقد اعتبر الرحالة المغربي الكبير الحسن بن محمد الوزاني المعروف عند الغربيين بليون الافريقي (Léon l'Africain) ان الفينيقيين عنصر هام في سكان افريقيا الاقدمين حيث انتقل فوج منهم صحبة مصريين الى افريقيا الشمالية عام 1215 ق. م عندما اجلاهم الاسرائيليون عن فلسطين ثم تابعت الجاليات ايام نبي الله داود عليه السلام عام 1055 ق. م والواقع ان العرب كانوا يملأون - باضافة الى الشمال الافريقي - هضبات وبطاح جنوب افريقيا حيث كشف الدكتور استانلي تيبور على مقربة من نهر زمبيز في مقاطعة رودسيا آثارا منقوشة مع رسوم مكتوبة استدل بها على ان العرب استثمروا مناجم الذهب التي كان قد استثمرها قبلهم اسلافهم عرب اليمن وقد لاحظ صاحب قصة الحضارة (ج2 ص 43) ان الحضارة ظهرت في بلاد اليمن وبلاد المغرب القديمة وانتشرت في صورة مثلث الى شومر وبابل واشور ومصر وبعض هذه النظرية ما قيل من ابوة

الى جنوب المغرب حيث اتصلو بالجيتول (Gétules) (وهم اهل جزولة الحالية على ما يظهر) فتصاهروا معهم وسميت سوس (وكذلك كل من مدينتي سوسة التونسية والليبية وهما متشابهان ونهر سوس قرب قرطبة واشيلية بالاندلس وسوسة كورة بالاردن (معجم البلدان ج 5 ص 173) وسوسة مدينة بالصين (صبح الاعشي ج 4 ص 483) اقتبسنا من كلمة سوسانة (Susiane) (او ارض عيلام (Elam) الواقعة بمنطقة الاهواز على ان الفرس قد اشتهروا قديما بالتوميديين ومعناه الرمل بلقتهم وقد اطلق هذا الاسم على اهل نوميديا وهي اقليم افريقي يقع بين منطقة قرطاج التي اسماها الفينيقيون كعاصمة لمستعمرتهم عام 814 ق. م . وبلاد موريطانيا وقد خضعت هذه المنطقة بعد ثورة يوغورطا الى الحكم الروماني وسنرى كيف ان هذه العناصر تشكل حلقات في الشبكة الواسعة التي حبكها الفينيقيون منذ اعرق العصور بين الشمال الافريقي والخليج العربي ، نعم كان للعرب الكنعانيين اي الفينيقيين جولات في الخليج العربي فهم الذين أسوا مدينة تير (Tyre)

(صور الحالية في لبنان) في الالف الثالثة قبل الميلاد ، وكانت عاصمة تشرف على القوافل التي تنقل الى الغرب ما ينتجه الشرق الآسيوي عبر بحر القلزم والفينيقيون هم الذين أسوا مدينة قرطاج (واسماها محرف عن قرية حداش اي القرية الحديثة لانها أسست بعد كل من مدينة اوتيك (Utique)

التونسية ومدينة ليكس (Lix) المغربية حوالي (110 ق. م) وقد سقطت مدينة تير تحت الحكم الروماني عام 64 ق. م . واشرف عليها وعلى قصر فرعون اي ويلي القديمة (Volubilis) بالمغرب الاقصى الامبراطور الروماني سبتيم سيفير (Septième sévère) بين سنتي 193 و 211 ق. م

ويرى بعض المؤرخين ان الفينيقيين كانوا قد استقروا فترة من الزمن في شواطئ الخليج قبل ان ينتقلوا الى الساحل السوري وانهم سموا مدينة « صور » على شاطئ البحر المتوسط تيمنا باسم مدينتهم الاولى على شاطئ الخليج ولعل الآثار التي تم الكشف عنها في المنطقتين تضيء على هذه الرواية سمة من الحقيقة لا سيما وان مؤرخين محدثين قد اكدوا ذلك ومن جملتهم الاستاذ جان جاك بيربي (J.J. Berreby) في كتابه « الخليج الفارسي » (Le Golfe Persique) والى الاستاذ امين الريحاني الذي ابرز بالاضافة الى ما ذكر

اليمن (بلد العرب البائدة) للشعب العربي في سائر اقطاره وخاصة في حوض البحر الأبيض المتوسط حيث كانت نسبة المواليد منخفضة والوفيات مرتفعة مما سهل استيعاب الهجرة .

وقد تحدث ابن خلدون في تاريخه (ج 1 ص 99 طبعة بيروت) عن عروبة جبال الاطلس المغربية فأشار الى ما اكده المؤرخون والنسابون العرب امثال الطبري والجرجاني والمسعودي وابن الكلبي من ان صنهاجة (سكان الاطلس الاوسط) ومصمودة (سكان الاطلس الكبير) وكتامة (بشمال وشرقي المغرب الأقصى) عرب يمنيون من سلالة حمير فيكون البرابرة - حسب هذه الرواية - امرق في العروبة من ربيعة ومضر لانتسابهم الى افريقش بن قيس بن صيفي الحميري وقد تحدث عن هذه النظرية القلقشندي في صبح الاعشى (ج 1 ص 321) فلاحظ ان افريقش هذا هو الذي نقل البربر من سواحل الشام - مركز الفينيقيين ومهاجري الخليج العربي - الى المغرب ملاحظا ان اكثر الاقوال جانحة الى عروبة البربر خلافا لابن حزم (في جمهرته) وتبعه ابن خلدون (التاريخ ج 6 ص 96) الذي زعم انه لم يكن لحمير طريق الى بلاد البربر الا في تكاذيب مؤرخي اليمن ويظهر ان ابن خلدون اغفل الطريق القديمة التي كانت تصل اليمن عن طريق بحر القلزم (أي عيذاب وبور سودان الحالية) وصحراء السودان والتشاد بالصحراء المغربية الممتدة من تنبكتو الى النيجر الى مراکش تلك الطريق التي أكد الحسن الوزاني في وصف افريقيا (ج 1 ص 14 و 29) انه رافق عام 918 هـ تجارا انتقلوا من المغرب الى السودان ثم مصر حيث دشنوا طريقا جديدة من الجنوب تصل الصحراء بمصر عن طريق التشاد وكانت الطريق العادية بواسطة فزان وطرابلس قد هجرت منذ قرن نظرا لعبث عرب الساحل وكذلك البحر بسبب القرصان المسيحيين وقد لاحظ المؤرخ الالماني (هانز Hanz Helfritz) في كتاب له حول اليمن (تعريب خيرى حماد ص 134) التشابه الملحوظ بين الالحان في اغاني الجنوب العربي وبين الموسيقى البربرية التي تمكن كارل ولهام لخمسان (1793 م - 1851 م) من تسجيلها فأبرز وحدة الانشاد ، اضع الى ذلك وجود ابنية بالاطلس تشبه تلك التي تقوم في الجنوب العربي وتحمل نفس المظاهر المعمارية ، وقد شرح هورن بوستل النمساوي (1877 - 1935 م) انتماء البربر واليمنيين الى اصل واحد ينتسب الى آسيا الشرقية .

وسنرى كيف ان سجلماسة عاصمة الصحراء كانت منذ القرن الثالث الهجري مركزا للقوافل التجارية بين بصرة المغرب وبصرة الخليج وليس بيدع ان يوغل في الصحراء اهل هذه الصحراء لا سيما وان هؤلاء كان دابهم في جميع الاعصار الفرار من رطوبة السواحل والتوغل في الرمال سواء كانت في النيجر ام في السودان ام في الثلث الخالي من جنوب غرب آسيا وقد اسس العرب مراكز تجارية في غمار الصحاري كمحطات للقوافل المحملة بالبضائع الجلوبة من اقاصي البلاد وكانت التجارة آنذاك تمر حتما في الطرق البرية لأن العرب لم يكونوا قد استأنسوا بعد بالطرق الملاحية وقد ساعدت وحدة نظام الحياة القبلية في الصحراء على هذا الترابط .

ويعتبر القرن الثالث الهجري قمة نشاط الحركة التجارية برا وبحرا وفترة ذهبية في تاريخها فالس القرن الثالث الهجري يرجع تاريخ الكثير من رحلات الجغرافيين العرب حول العالم كابن وهب القرشي الذي رحل الى الصين عام 256 هـ وسليمان الصرافي الذي كتب رحلته الى الخليج العربي والخليج الصيني عام 237 هـ وسلام الترجمان الذي رحل الى الصين الشمالي ايام الخليفة الواثق بالله واليعقوبي صاحب البلدان وابن خردادبة صاحب المسالك والممالك المتوفى عام 300 هـ أما في اوائل القرن الرابع فهناك الحسن المهلب الذي رحل الى السودان عام 375 هـ ومحمد التاريخي الاندلسي المتوفى عام 363 هـ وهو صاحب « كتاب وصف افريقية والمغرب » وابو دلف الذي رحل الى الصين حوالي 331 هـ والاصطخري صاحب « الاقاليم » و « الممالك » الذي لقى ابن حوقل استفرق تجواله حول العالم ثلاثين سنة والمسعودي صاحب « مروج الذهب » و « معادن الجواهر » الذي فرغ منه عام 336 هـ وهو كما وصفه ابن خلكان امام المؤرخين ، والواقع ان طريق الوطن العربي الى الصين فتح منذ عام 31 هـ (651 م) بتتابع سفارات بلغت في ظرف 147 سنة ستا وثلاثين بعثة دبلوماسية عربية (مجلة بناء الصين عدد 3 - 1966) على ان الكلمة التي استعمالها التجار العرب والرحالون الاوربيون في العصور الوسطى لتسمية بيكين (Pékin) هي لفظة خان باليك (Khan Balik) (دائرة المعارف الاسلامية ج 1 ص 1024) وكانت الخطوط التجارية كلها سواء انبثقت من غرب أوربسا او من الشمال الافريقي او من روسيا تؤدي الى ميناء الابلة وميناء البصرة وقد أكد الرحالة بانيكار في كتابه

في المدينة بصرف كل دفعاته بالشيكات على البنوك ومثل هذه الحوالات كانت أيضا بسجلماصة حيث كانت التجارة مزدهرة مع السودان والبصرة حسب ابن حوقل الذي حدثنا (المسالك والممالك ص 70) عن العوائد التجارية بهذه المدينة (عاصمة الصحراء المؤسسة عام 140 هـ) فلاحظ انه « رأى صكا فيه ذكر حق على رجل من أهل سجلماصة لرجل آخر من أهلها بأربعين ألف دينار » كما رأى ذلك بخراسان والعراق (ولعله يعني البصرة) وكان التجار المسيحيون الواردون من الاندلس وتلمسان يمرون بسجلماصة الذي أكد ياقوت الحموي في معجمه أن مصانع نسيجها بذت في جودة الانتاج مصانع مصر كما لاحظ ابن خردادبة الجغرافي العربي في القرن الثالث الهجري أن التجار الصقالبة كانوا يمرون في وجههم نحو لشرق عن طريق سوس الأدنى أي طنجة ومنها إلى أفريقيا ومصر وتشمل مقاطعة سوس الأدنى بالإضافة إلى فاس مدينة البصرة المغربية بحيث يمكن القسول بأن هذا المركز كان منطلقا للقوافل نحو البصرة الشرقية سواء عبر الصراء الجنوبية أم خلال بلاد الكنانة ولعله ليس من العبث أن تحمل مدن مغربية واندلسية على طول الطريق الغربي أسماء مدن أخرى تتلاحق في الشق الشرقي لنفس الطريق فبالإضافة إلى البصرة وسوس الاهواز وحمص (في كل من فاس الجديد والاندلس) توجد في قلب الأطلس مدينة القاهرة وفي قلب الريف اقليم فشتالة المعروف بالشام الصغيرة كما توجد في الاندلس مدينة تدمير (Todmir)

Encyclopédie de l'Islam, IV, p. 848

المتساوقة في اسمها مع تدمر السورية (Taomor Palmyre) التي كانت منذ العصر الروماني من أبرز المراكز التجارية في هذه الشبكة وكانت أشهر المدن والعوائىء في الخليج آنذاك أبولو جوس أي الأبله (Abolla) التي ينتمي إليها أبو عبد الله الأبله شيخ ابن خلدون وقد ظلت الأبله المخرج الرئيسي على الخليج من أجل التجارة الفارسية في النقطة التي تلتقي عندها الطرق العظيمة من فارس وجزيرة العرب على ضفتي دجلة وقد لفت ابن خردادبة الانتباه إلى المكانة الهامة التي احتلتها الأبله في التجارة بين الشرق والغرب حيث كان التجار اليهود يقفون من فرنسا في البحر العربي (أي المتوسط) ويتجهون نحو انطاكيا ومنها إلى بغداد ثم الأبله فالسند والهند والصين وقد ظلت هذه المدينة بارزة على المسرح العالمي مرتبطة بالبصرة في النشاطات البحرية الخاصة بالخليج لعدة قرون وإذا كانت مدينة البصرة

حول « آسيا والسيطرة الغربية » أن العرب سواء في الشرق أم في الغرب أصبحوا يتنافسون مع الشعوب الأخرى على تجارة الافاوية فكان للتجار مستودعات بالقاهرة والاسكندرية بل حتى بمدينة فاس في المغرب الأقصى (ص 37 ترجمة عبد العزيز توفيق جاويد) أضف إلى ذلك أن تجارة الرقيق المجلوب من أفريقيا السمراء وحركة الحجيج كان لهما ضلع في تعزيز هذه الحركة التجارية وقد بلغ من اهتمام المسئولين العرب بتأمين طرق المواصلات أن عزم عمرو بن العاص وبعده هارون الرشيد على شق ترعة السويس حتى تمتد الخطوط التجارية دون انقطاع من الاندلس والمغرب إلى الصين وقد اشتهرت ثلاث مدن ملاحية في الخليج العربي بنشاط غامر في هذا الحقل التجاري فكانت سيراف تربط الخليج بالصين بينما كانت البصرة نقطة التقاء للسبل البحرية وطرق القوافل التجارية حيث بذت في شهرتها ميناء الأبله الذي ظل مع ذلك المركز التجاري الاوحد ما بين الخليج العربي والخط الملاحي لنهر دجلة الممتد إلى البصرة وقد تعزز التبادل آنذاك بين الشرق والغرب بوحدة العملة حيث كان التجار يعتمدون العملة الذهبية وهي الدينار والفضية وهي الدرهم وقد بلغت مكانة سجلماصة مبلغا جعل الاندلسيين أنفسهم يتعاملون بالدينانير السجلماسية (البيان لابن عذارى ج 2 ص 344) نظرا لضرورة توحيد العملة بين المراكز التجارية في طريق القوافل وقد وقع العثور عام 1951 في الانقراض الاسلامية بقصر فرعون (Volubilis) على 231 درهما فضيا من العصر الاموي مع دينار ذهبي دمشقي وكلها دراهم شرقية من واسط ومرو واضطخر وجند يسابور ودمشق وحمدان وأفريقيا .

وإذا علمنا أن البصرة تقع على الطرف المباشر للصحراء في جانب الأرض المزروعة وبساتين النخيل في منطقة شط العرب علمنا لماذا كانت محط أنظار الحضريين والصحراويين من المغاربة حيث أسست بصرة المغرب بالقرب من مدينة القصر الكبير شمالي المغرب وظلت مركزا اقتصاديا هاما لصنع الكتان ومرحلة في طريق القوافل إلى أن هدمها أبو الفتوح عام 368 هـ (البيان لابن عذارى ج 1 ص 330) وقد حدثنا ناصر خسرو الذي زار مدينة البصرة الشرقية عام 1050 م عما وجدته من عادات لدى التجار الذين كانوا يملكون كمبيالات أو سفنجات يحفظونها لدى تاجر عملة أو رجل بنك مقابل ائصال وكل المشتريات تدفع بالشيكات أو الحوالات ويقوم التاجر طوال اقامته

المتوسط ولم يقبض العرب على زمام البحر الاحمر المتوسط فحسب بل أصبحوا سادة المحيط الهندي لا سيما بعد ان اكتشفوا الرياح الموسمية وسخروها لخدمتهم وانشأوا الموانئ والمنازل التي تشتعل فيها النيران ليلا لتهدئ بها السفن وعززوا المرافئ بمراكز الحاميات حفاظا عليها من القرصنة وغارات البدو ، وقد اشار ابن مرزوف في « المسند الصحيح الحسن » (هسبريس (Hesperis) ج 5 عام 1925) الى وجود « مدارس ومناظر على طول الساحل بين أسفي (في المحيط الاطلنطيقي) وجزائر بني مزغانة (عاصمة الجزائر الحالية) تتخبر فيما بينها باشغال النيران في أعلاها وفي كل محرس رجال مرتبون ونظار وطلاع يكتشفون البحر فلا تظهر فيه قطعة تقصد ساحل بلاد المسلمين والتنبير يبدو في المحارس للتحذير » .

وقد اشار البكري (افريقيّة والمغرب في المسالك ص 35 و 48) الى محارس سوسة والمنستير وفي هذا العصر استعصى عن الموالى الصقالبة الذين نقت نخاستهم منذ القرن الهجري واقتن اسمهم بها حتى صار الاوربيون يطلقون اسم الصقالبة (Slaves) على العبيد (Esclaves) (1) نقول استعصى عنهم بالزواج الذين أصبح التجار المسلمون يأتون بأعداد ضخمة منهم وقد تجلت هذه الظاهرة بالقسم الشرقي من المغرب العربي أي في تونس خاصة منذ استوطنت جماعات من الباطنيين والزيديين افريقيّة فرارا من الاضطهاد العباسي ثم استفحل ذلك عندما زج الفاطميون - اقتصاصا من بني زيري - بمائتي ألف قرمطي من بني هلال وبني سليم الذين نشروا الدمار في هذه البلاد مما حدا ابن خلدون الى التنكر في القرن الثامن للعرب الذين لم يكن يقصد بهم سوى الاعراب وخاصة هؤلاء ولم تدخل الى المغرب من هؤلاء سوى فلول منتقاة كان الزمن قد عفى على عنجيتهم البدوية ونزعتهم القرمطية فكان لهم ضلع في تعريب المغرب وشنقيط والواقع ان الباطنيين من القرامطة او اليديين قد عاثوا فسادا في افريقيّة وجاس المغامرون منهم في مجاهل الصحراء الافريقيّة لاصطياد الزوج في الادغال الكثيفة وفي هذا العصر حادت طريق البر في شمال افريقيا عن خطها العادي لتتصل بالبصرة وبغداد وسوريا ومصر بواسطة الخط الساحلي على طول بحر

الحديثة قد امتصت الأبلّة فان ذلك لم يتم الا بعد القرن التاسع الهجري وهنا يمكن أن نتساءل عن الدور الذي قام به الخوارج لمعم الروابط السياسية بين الخليج والمغرب منذ صدر الاسلام ، فالأزارقة قد ثاروا في الاهواز والبصرة حيث استباحوا دماء وأعراض المسلمين الخارجين عن نطاق فكرتهم ولكنهم ما لبثوا ان انهزموا لتطرفهم فخلعهم الصفريون القائلون بضرورة التعايش مع غير الخوارج وقد نفذ هؤلاء الصفريّة في المغرب الى قلوب البربر الذين شقوا الطاعسة على الخليفة هشام وأججوا نار الثورة عام 121 هـ باقليم طنجة وتسربت فلولهم الى الصحراء فأسست (عام 140 هـ) مدينة سجلماسة التي أصبحت حاضرة بني مدرار الى منتصف القرن الرابع الهجري وهو التاريخ الذي تهدمت فيه مدينة البصرة المغربية وانهار الحكم الخارجي وكذلك الشيعي في المغرب بانهزام جوهر الصقلي الذي نقل عدته الى مصر حيث بنى القاهرة وليس من قبيل الصدفة ان يجعل الخوارج من البصرة مؤنلا لهم ومركزا ينافسون به الكوفة التي عدت قاعدة من قواعد الشيعة في نفس الوقت الذي جعلوا من سجلماسة في قلب الصحراء المغربية حاضرة لامارة خارجية وحلقة أساسية في سلسلة المراحل التي تاوى اليها القوافل التجارية كما انه ليس من قبيل الصدفة ان تتقلص الحركة التجارية بين الخليج والمغرب في القرن الرابع الهجري في نفس الوقت الذي تقلص فيه نفوذ الخوارج .

ومنذ ان استوثقت روابط المغرب بالصحراء في القرن الخامس بدأت أسواق النخاسة تتفق في خفاء وكذلك كان الامر عندما شكل عنصر الزنج في الدور العباسي الثاني (ما بين 233 هـ و 468 هـ أي 847 م 1075 م) طبقة متميزة في المجتمع العربي وخاصة في شمال الخليج فعززوا حركة الرق والنخاسة يساعدهم امتداد النفوذ الاسلامي الى افريقيا (أي تونس وجزء من الجزائر) وازدهار الملاحة العربية حيث ما فتىء الأبوليون ان سيطروا في القرن التالي على الشق الشرقي لبحر العرب أي البحر الابيض المتوسط يساندهم في الشق الغربي الموحدون الذين كان لهم اسطول من اربعمائة قطعة اعتبره المؤرخ الفرنسي أندري جوليان أعظم اسطول في البحر

(1) صقلاب هي أرض بالاندلس وصقلية حسب ياقوت (معجم البلدان ج 5 ص 372) ولعل قسما من الصقالبة ينسب اليها لا الى جنس السلاف

العرب على أن حركة القرامطة الإبادية قد بدأت منذ سنة 315 هـ / 927 م حيث استولوا على البصرة وظلوا يعرفون سير القوافل التجارية أو قوافل الحجيج لاعتقادهم أن الحج من شعائر الجاهلية بل من قبيل عبادة الأصنام ولذلك أجهز القرامطة على مسن سموه بالكفار وعبدة الأحجار بمكة فردموا بئر زمزم وكدسوا جثث القتلى في المسجد الحرام واندفعوا بخربون جوانبه بحرابهم وخيولهم فاحتملوا معهم الحجر الأسود إلى الأحساء حيث بقي ملقى إلى عام 339 هـ / 900 م .

وبنو هذيل هؤلاء الذين حاولوا في الخليج الوقوف في وجه القرامطة منتهكي حرمة البيت هم الذين أشرنا إلى اعتدالهم عندما هاجروا إلى المغرب الأقصى في القرن السادس الهجري بدعوة من المنصور الموحدى بطل معركة الأرك في الأندلس .

ومهما يكن فإن هذه الأحداث قامت حجر عثرة في طريق المبادلات التجارية حيث أن الحشاشين من الإسماعيلية الباطنية امتدت جذورهم في شرقي الخليج حتى خلال الحكم الأيوبي إلى الوقت الذي زحف المغول على فارس حوالي 659 هـ / 1260 م .

وإذا كانت التجارة قد تقلصت في هذه الفترة بين المغرب والخليج خاصة وبين الشرق والمغرب عامة فإن ذلك لم يكن يرجع بالنسبة للمغرب إلى وجود هذه الطوائف الهدامة بل لأن هؤلاء كانوا منبئين على طول مراحل القوافل شرقا ينهبون ويقتلون ويدمرون ومع ذلك فإن نفس العوامل كانت تدعم حركة النخاسة والمبادلات لا سيما بعد أن احتل ملوك المغرب السعديون السودان أوائل القرن العاشر الهجري ثم العلويون بعدهم عندما توغل زعيمهم السلطان المولى اسماعيل في قلب الصحاري إلى حدود غينيا وشكل جيشا من العبيد (أي الزوج) ما لبث أن أعاد تاريخ ثورات الزنج بالشرق وخاصة بالخليج إلا أن عنصرا جديدا ظهر منذ أوائل القرن السادس عشر حيث حاول البرتغاليون الاستعماريون سد البحر الأحمر في وجه السفن العربية للاستيلاء على مداخله تمهيدا لغزو الخليج العربي وكانوا قد أنشأوا عام 1482 م في ساحل الذهب أول مستعمرة لهم في أفريقيا وهنا يبرز دور المغرب في انتفاذ الخليج من ضغط الاستعمار البرتغالي ففي عام 1540 م دخل سليمان القانوني إلى الخليج العربي من الشمال ونازل البرتغاليين في معركة ميناء « مصوع » على الساحل الأفريقي من البحر الأحمر

حيث اندحر البرتغاليون أمام الاسطول العثماني غير أنهم لم يكفوا عن مهاجمة المراكز العربية في الخليج مضاعفين ضغوطهم على المغرب الذي انكفأوا إليه بعد أن قضوا على آخر من تبقى من العرب في الأندلس تقتيلا وتهجيرا ولكن رد فعل المغرب الأقصى كان عنيفا ، ففي عام 986 هـ (1578 م) هاجم البرتغال بقضه وقضيضه شمال المغرب بقيادة ملكه الشاب الدون سبستيان (Don Sébastien) وبلغ جنسده البرتغال آنذاك مائة وخمسة وعشرين ألفا وقطع اسطولهم الرابضة في أصيلا والعرائش 847 وزحف الجيش البرتغالي إلى وادي المخازن في متم جمادى الأولى من نفس السنة أي ربيع غشت عام 1578 م وكانت هجمة صليبية عززت فيها البابوية الزحف المسيحي على العالم الإسلامي شرقا وغربا باستنفار الدول الكاثوليكية وتعبئة شباب الفاتكان وكانت الحملة لاحتلال المغرب منسقة بقيادة البابا اقتصاصا من الوجود العربي بالأندلس وتعويضا للمسيحية عن فقدان روديس وجزء من هنغاريا والبابا الاسكندر السادس هو الذي أصدر مرسوم تقسيم العالم إلى مناطق نفوذ بين إسبانيا والبرتغال عام 1494 غداة الكشف عن أمريكا ولكن أبى الله إلا أن يهزم هؤلاء الأحزاب وينصر عباده المؤمنين فقتل ملك البرتغال وأسر جيشه وفر أسطوله فكانت هذه المعركة - كما يقول المؤرخ الفرنسي هنري طيراس - المعركة الفاصلة في تاريخ الصراع بين المسيحيين والإسلام أنزلت ضربة بالطموح البرتغالي وفككت أوصال مملكة البرتغال لأن الدون سبستيان مات بدون وارث فخلفه عمه فيليب الثاني ملك إسبانيا التي اندمجت فيها البرتغال أزيد من ستين سنة ظلت خلالها خاضعة هي نفسها للأسبان ولذلك تم خلال هذه الفترة اجلاء البرتغاليين عن منطقة البحرين التي احتلوها قرنا كاملا عام 1622 م أي بعد معركة وادي المخازن بأربع وأربعين سنة ، كما طرد البرتغاليون عن مجموع مستعمراتهم على الشط العربي عام 1649 م الموافق 1059 هـ وبذلك تحرر العالم العربي من هيمنة البرتغال الذين لطمخوا تاريخ العروبة والإسلام طوال أربعة قرون .

وإذا كان الخليج العربي قد غدا منذ القرن الثالث البحري المرحلة الرئيسية في تاريخ الملاحة العربية تمر به المراكب في ذهابها وإيابها بين أوروبا والشرق الأقصى عبر البحر الأبيض المتوسط فإن كلا من الخليج والبحر المتوسط كانا عالة الواحد على الآخر واستمر هذا التساوق إلى القرن العاشر

بوجود قارة جديدة وراء المحيط هو ابن رشد المغربي في كتابه « الكليات » في الطب على أن مجلة « نيوزويك » الامريكية أكدت في عددها الصادر في ابريل 1960 (راجع الخليج العربي في تاريخه السياسي ونهضته الحديثة ص 13) ان الوثائق التي عثر عليها تثبت ان امريكا كانت معروفة للعرب « الذين قاموا - حسب تعبيرهم - قبل سنة 1100 م على الطرف الغربي للعالم الاسلامي ومن ميناء الدار البيضاء على التحديد ورسوا في عدة مواضع على الساحل الامريكي » وقد ايد هذه النظرية (1) الدكتور لين شينج بانج استاذ التاريخ واللغة الصينية بجامعة هارفارد كما ايدها الدكتور ريتشارد رودولف رئيس المؤتمر الذي عقدته الجمعية الشرقية الامريكية . وقد كان ابن عربي الحاتمي يرى ان وراء المحيط الاطلنطيقي امما وعمرانا وقد عاش قبل كولومبس بثلاثة قرون وتحدث محمود الاصفهاني (المتوفى عام 749 هـ) قبل كولومبس بمائة وخمسين سنة عن احتمال وجود ارض وراء المحيط كما ذكر ابن الوردي في جغرافيته انه يوجد وراء الجزر الخالدات (اي كناريا) جزائر وصفها وصفا يكاد ينطبق على امريكا وقد عاش ابن الوردي قبل كولومبس بأكثر من مائة سنة (عبد القادر المغربي - محاضرات مجمع دمشق ج 2 ص 233) .

وهنا بدأت في المغرب والخليج فترة جديدة من الصراع تجلّى في ظهور الانجليز على مسرح التجارة الخارجية حيث تنفسوا الصعداء من اندحار البرتغال فأقاموا في الشرق الشركة الهندية ، وفي المغرب شركة بربريا (Barbary Company) وبينما أرادوا ان يركزوا في الخليج وجودهم بملء ما تركه البرتغاليون من فراغ اذا بهم يكتفون في المغرب بالعمل على حماية صفاتهم التجارية من القرصنة وتأمين البحر المتوسط من غازات المراكب والسفن المغربية مما أدى ببعض الدول الكبرى كاللندمارك (2) والسويد وبعض المرافء الحرة كهامبورغ وبريم بألمانيا الى دفع اناوة سنوية خاصة للمغرب اعتصاما بأسطوله من لصوصية البحر . وكان قراصنة المغرب قد مدوا شبكة غاراتهم الى المحيط الاطلنطيقي فواجهوا الانجليز في عقر ديارهم وقلصوا من جهة ثانية ضغط هؤلاء على الشرق العربي وخاصة الخليج لاضطرارهم الى الاحتفاظ بجزء من اسطولهم لحماية سواحل الجزر البريطانية الا ان الانجليز فوجئوا هنا وهناك في آن واحد على طول

الهجري عندما كان مضيق جبل طارق هو المر الفاصل بين المحيط الاطلنطيكي والمتوسط فكانت مدينة سبتة منطلق المراكب التجارية الى ديار الهند وظلت كذلك حتى بعد سقوط القسطنطينية في يد السلطان العثماني محمد الثاني عام 857 هـ 1453 م وباستئصال شأفة الفزو البرتغالي في الخليج وتقليص ظلهم في سواحل المغرب شمالا وغربا تمكن العرب من الانتصار في الحرب الصليبية الثانية التي اججت اوربا نيرانها ضد العرب في القرنين السادس عشر والسابع عشر لتنتقل في حلقات اخرى من هذه الحسرب بقيادة الهولنديين والانجليز والفرنسيين في كل من المغرب والخليج العربي ، غير ان حدثا جديدا كلل انبثاق العصر الحديث وانقضاء القرون الوسطى وهو اكتشاف امريكا عام 898 هـ / 1492 م من طرف كريستوف كولمبس ذلك الاكتشاف الذي يرجع الفضل فيه الى رجل من ابناء رأس الخيمة على الشاطئ الغربي للخليج العربي ، وهذا الرجل هو ابن ماجد أحمد السعدي أسد البحر ابن ابي الركائب الذي ساهم على غير قصد منه في تحطيم سيادة العرب على المحيط حين استعان به فاسكو دوغاما قائد الاسطول البرتغالي عام 1498 م لقيادة السفن البرتغالية عبر المحيط الهندي ورأس الخيمة هي احدى الامارات السبع التي ظلت الى منتصف القرن الثامن عشر عاصمة لجميع سواحل عمان وقد اقضت مضاجع اساطيل شركة الهند الشرقية في الخليجين والمحيط .

والغريب ان اكتشاف امريكا الذي نسه الكثير من المؤرخين الى العرب يرجع الفضل فيه بالذات اما الى رجال الخليج قبل الميلاد او الى عالم من علماء الاندلس والمغرب ، فقد تأكد ان الفنيقيين المنتسبين اصلا الى الخليج قاموا بدورة حول العالم طوال ثلاث سنوات طافوا خلالها حول افريقيا ووصلوا الى البرازيل واسسوا مملكة هناك ما زالت معالمها قائمة الى الآن ومن جملتها الحجارة المكتوبة باللغة البونيقية اي لهجة افريقيا الشمالية مما يدل - اذا صحت هذه الرواية - على أن القرطجنيين - وهم عرب فينيقيون تأقلموا في المغرب - هم الذين اسهموا مع المغاربة في اكتشاف امريكا على أن كريستوف كولومبس نفسه يعترف كما اورد ذلك المؤرخ الفرنسي رونان في كتابه « ابن رشد ومذهبه (Averroès et l'Averroïsme) بان كولومبس ترك رسالة بعد وفاته يقر فيها بان الذي اوعز اليه

(1) راجع الخليج العربي - قدرى قلعجي ص 56 .

(2) كانت اللندمارك تدفع سنويا للمغرب 51 000 ويكسدال اي ازيد من ربع مليون فرنك ذهبي .

وقد احتفظ المغرب الاقصى باستقلاله فى هذه الفترات بل انه احتفظ باستقلاله خلال الف عام (الى عام 1912 م) فكان القطر العربي الاسلامي الوحيد الذي ظل فى منأى عن سيطرة الخلافة العثمانية والذي عرف كيف يستغل انتصاره فى معركة وادي المخازن حيث أصبحت دول أوروبا تخطب وده لأن هزيمة دولة استعمارية كالدولة البرتغالية لم يكن بالأمر الهين ولا بالشئ الذي يمر دون أن يثير إعجاب العالم مما حدا بالإنجليز الى مفاوحة المغرب فى القيام بعمل موحد لخلق كوندومنيوم مشترك فى الهند وفى عام 1600 م وجه المنصور الى ايليزابيث ملكة انجلترا سفارة للقيام بمأمورية سرية من أجل تحقيق التحالف الإنجليزي ضد اسبانيا وقد اقترحت ملكة انجلترا على السلطان اكتساح الهند بدل اسبانيا نظرا لكون فيليب الثاني يستمد موارده من الهند ، وقد شاطرها السلطان هذا الراي مطالبا لتمويل المشروع بمائة الف جنيهه استرليني وانشغل المغرب فى لم شتاته وتطوير صناعته فزرع قصب السكر (1) وفتح مصانع لتكريره فتنافس البلاطان الإنجليزي والفرنسي على اقتنائه وصدده المغرب الى الشرق فى جملة ما صدر من جلود وزيت و معادن (من نحاس و رصاص و حديد و قصدير بالإضافة الى ملح البارود والكبريت) وأصبح للدینار المغربي نفاق فى السوق العالمية رغم انخفاض وزنه الذهبى الى 3ر548 غرام وتهافت المضاربسون من الإنجليز على هذه العملية القوية يستعوضون بها عما خسروه من صفقات فى الخليج (2) بل أصبح المغرب يدلي بدلوه فى توجيه السياسة الأوربية وفى فتح قروض (ناب منها دولة هولندا مليون ونصف مليون دينار) واكتساح أوروبا حيث وجه عملاء للدعابة

طريق الهند المارة من جبل طارق بمزاحم جديد هو هولندا قامت هي الأخرى بتحدي القرار البابوي الهادف الى اقتسام العالم بين زعيمتي الكاثوليكية آنذاك اسبانيا والبرتغال وكان لقيام الحركة البروتستانية ضلع فى دعم هذا الاتجاه فأنشأ الهولنديون عام 1592 م شركة للتجارة مع الهند واتجه اسطول هولندي بين 1598 و 1601 م (موافق 1007 و 1010 هـ) الى المحيط الهندي عن طريق الممر الجديد براس الرجاء الصالح للاتجار والغزو معا بينما عقدوا المغرب الاقصى معاهدة عام 1610 م للحصول على رسوم الاسبقية فى التجارة الخارجية ، ولم يكدهل عام 1640 م (1050 هـ) حتى احتل الهولنديون مكان الصدارة فى الخليج العربي الا أن صراعهم ضد الإنجليز ما فتىء أن استفحل بسبب تدخل القراصنة المغاربة الذين كانوا يعملون بغير قصد منهم على التخفيف من ضغط الفريقين على الخليج العربي ، فقد كان كل من الإنجليز والهولنديين يناصب العداء للاسبان عدوهم المشترك سياسيا ودينيا واقتصاديا الا أن الهولنديين ظلوا يمدون سفن القرصنة المغربية بالعتاد ومواد السفانة وقطع الغيار بينما طفق الإنجليز يواصلون حربا شعواء ضد هؤلاء القراصنة حتى اندلعت الحرب بين الطرفين عام 1652 م (1063 هـ) طوال عامين واتسعت شبكتها الى ما وراء البحار فاشتبك الاسطولان الإنجليزي والهولندي فى مياه الهند المؤدية الى الخليج ، والواقع أن القراصنة المغاربة قلعوا من نشاط الإنجليز فتعطلت تجارتهم فى الشرق فى نفس الوقت الذي ادى حياذ القراصنة بهولندا الى نوع من الحصانة تمتع به اسطولها فى البحر المتوسط مما فسح لها مجال الضغط على الخليج ،

- (1) كان السكر يصنع فى شقي العروبة بافريقيا ومصر (الخطط للمقريزي ج 1 ص 203) وافريقية وخاصة فى قابس وحلولا (المسالك للبكري - جزء افريقية والمغرب ص 17 و 32) وكانت معاصر السكر فى المغرب تدر سنويا على المنصور السعدي ازيد من ستمائة الف اوقية ذهبية (وزن الأوقية 30 غرام تقريبا) وكان بالمغرب مناجم فضة وذهب (البكري) خاصة قرب سجلماسة (كتاب الاستبصار) والنحاس الخالص الذي لا يمدله غيره شرقا وغربا (الادريسي) بالإضافة الى القطن الذي كان يزرع بتادلا (وصف افريقيا للادريسي ص 50) وتطورت على يد الإنجليز عام 1864 م فى منطقة مدينة الجديدة صناعة قطن حريري شبيه بالقطن الامريكي كان نافقا فى أوروبا وذلك بالإضافة الى مصانع الطلس (Satin) ايام السعديين .
- (2) كانت تنبكتو تؤدى الى المغرب جزية سنوية قدرها ستون فنظارا من التبر اي الذهب غير المسبوك مما جعل من المنصور الذهبي اعظم امير فى العالم من حيث العملة وكان الإنجليز يهربون الذهب فى صناديق السكر المغربي .

لمنتجاته وسوائمه ومعادنه عاملا على حماية الصناعة الوطنية من المتزاحمة الاجنبية .

غير ان منافسا جديدا ما لبث ان برز هو الاستعمار الفرنسي الذي اضطر عدوتي الامس (هولندا وانجلترا) الى التحالف لدرء خطره الداهم ولكن ذلك لم يمنع فرنسا من تهديد مصالح الانجليز في الخليج ، واستطاع نابليون ان يطأ تراب النيل فاتحا وان يهدد المولى سليمان ملك المغرب بالانقضاء عليه في مائة الف من جنده اذا هو لم ينضم الى كتلة الحصار البري (Bloc continental) المضروب على الانجليز وكان اسطول القرصنة المغاربة يقض مضاجع الاوربيين في المتوسط وفي عرض المحيط الاطلسي الذي نقلوا اليه عملياتهم بعد ان اصبح طريقا جديدا الى الخليج ولم تكن علائق فرنسا مع المغرب مستوسقة بسبب ذلك الصراع البحري الذي جعل المغرب ينهج سياسة التنازع بين الدول الاوربية يثير هذه ضد تلك ويحالف جانبا للتلصص من ضغط جانب آخر .

والواقع ان انقسام المغرب الى اقاليم مستقلة خلال القرن السابع عشر (قبيل توحيد المغرب على يد الدولة العلوية) هو نفسه الذي ترك ثغرات تسرب منها المستعمرون مثل ما وقع في امارات الخليج بالنسبة للبولنديين والانجليز والفرنسيين .

ففي الوقت الذي اتسع نطاق التجارة الانجليزية في الشرق واوربا الشرقية أي القرن السادس عشر تزايد أيضا مع المغرب وحتى غينيا بافريقيا ، غير ان الفرنسيين كانوا قد بدؤوا حتى الهولنديين في مبادلاتهم مع المغرب حيث دخلت في عام واحد (1698 م) لمرسى سلا أربعون سفينة تجارية وتأسست بعد ذلك بستين شركة تجارية فرنسية اضطلعت باصدار المنتجات المغربية وقد بلغ عدد السفارات المغربية الى فرنسا نحو من سبع وعشرين سفارة ، اولها عام 1576 م والاخيرة عام 1909 أي قبيل الحماية بثلاث سنوات

كانت حجرة بادس تعتبر ميناء فاس في البحر الابيض المتوسط ، وكان الاسطول التجاري لبعض الدول يربط فيها الا ان القرصنة الجزائريين اتخذوها عام 1564 م (971 هـ) مقرا للهجوم على سواحل الاندلس واقتناص السفن المتوجهة للهند والخليج وكان قرصنة تطوان والعرائش يتعاونون معهم لأن القرصنة الجهادية كانت عبارة عن رد فعل المسلمين على ما لحق اخوانهم في الاندلس من نفسي وتكيسل

وتقتيل وقد تحالف قرصنة سلا (وهم خليط من العرب والمسلمين والاعلاج من كافة سواحل المتوسط) مع الانجليز لمساعدتهم على احتلال جبل طارق وكانت معظم الدول الاسلامية المتوسطة تساند هذه القرصنة لا لكونها انطلاقة مشروعة ضد العدوان الايري فحسب بل ايضا لأنها اعادت الى العرب سيادة المتوسط والمحيط وواجهت القرصنة المسيحية ونشرت الأمن والطمأنينة في البحار بالنسبة للسفن العربية والحليفة ، وكان معظم البوارج الحربية في اوائل العهد العلوي (أي في نهاية القرن السابع عشر) قد اقتنصها القرصان من الاسطول الفرنسي أو الهولندي أو الانجليزي واهمها تسع عشرة سفينة انجليزية وأربع فرنسية مما يدل على هيمنة اسطول القرصان الجهادي ، وقد بلغ عدد القطع البحرية الخمسين في عهد المولى محمد بن عبد الله وسبعا وأربعين أيام المولى سليمان ولكن المغرب ظل مع ذلك ينغم في الحقل الدولي بمكانة ملحوظة مما حدا روسيا الى طلب انضمامه في حرب القرم (1854 م - 1856 م) الى كتلة المحايدين واستدراجه للدخول الى الحلف الروسي الامريكي ضد تركيا وفرنسا وانجلترا ، وكان المغرب يشعر بان انغماره في هذا الحلف يعزز مركزه ضد الفرنسيين والانجليز الذين بدأوا يتنافسون لبطس نفوذهم على المغرب لا سيما بعد ما احتلت فرنسا الجزائر واجبرت المغرب على امضاء معاهدة لالة مكنية عام 1845 ولكن المغرب راعى ذمام الاسلام فلم يجروا على الدخول في حلف موجه ضد تركيا المسلمية وغم كونها كانت حجرة عثرة في سبيل وصل علاقته مع الشرق العربي وخاصة الخليج منذ ان سيطر العثمانيون عليهما في منتصف القرن الخامس عشر ، وتمتاز هذه الصلات العريقة بين الخليج العربي والمغرب الاقصى وهما شقان متناهيان للوطن العربي الممتد الى المحيط - بظاهرة هي اصالة معظم مصطلحاتهما الدارجة بالنسبة للفصحى ! ولا شك ان هذه الوصلة التي استوتقت عبر العصور راجعة بالاضافة الى العوامل التي اشرنا اليها كوحدة الاصل الكنفاني والتأثير الحميري المشترك الى وحدة المنبع المالكي في مفرداته الفقهية ومصادر اقتباسه الحديثة والقرآنية ، ولا شك ان لرواج المصطلحات المالكية في جميع المناحي الاجتماعية خاصة في ابي ظبي اثرا قويا في تكيف هذا التراث الوحدوي ، كما ان احتكاك التجار المغاربة بزملاتهم الخليجيين قد خلف مجموعة من الالفاظ الدارجة اشرنا الى بعضها في معجم خاص حاولنا فيه ابراز مظاهر الوحدة في عاميتي المغرب والخليج ونشر في مجلة اللسان العربي (عدد 5 -